بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَفَرُ النَّفْسِ إِلَى حَضْرَةِ الْقُدْسِ

تَأْصِيلٌ فَلْسَفِيٌّ وَمَشْرَبٌ عِرْفَانِيٌّ
فِي وَصِيَّةِ الأَمِيرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لِلْحَارِثِ الْهَمْدَانِيِّ

تَأْلِيفُ

أَحَدِ طَلَبَةِ الْحَوْزَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي النَّجَفِ الأَشْرَفِ

الْمُقَدِّمَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْكَلَامَ مِرْآةً لِلْعُقُولِ، وَأَفَاضَ مِنْ نُورِ حِكْمَتِهِ عَلَى قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ لِيَكُونُوا هُدَاةً لِلْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْأَتَمَّانِ الْأَكْمَلَانِ عَلَى مَعْدِنِ الرِّسَالَةِ وَمَهْبِطِ الْوَحْيِ، مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَعَلَى أَخِيهِ وَوَصِيِّهِ، بَابِ مَدِينَةِ عِلْمِهِ، أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا وَعَلَى آلِهِمَا الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ مَعَارِفَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لَيْسَتْ مُجَرَّدَ نُصُوصٍ تُقْرَأُ، بَلْ هِيَ مَنَاهِجُ حَيَاةٍ تَتَنَزَّلُ مِنْ عُلُوِّ التَّجْرِيدِ إِلَى حَرَارَةِ الْمَيْدَانِ، لِتَصُوغَ الْإِنْسَانَ فِي أَدَقِّ مَوَاقِفِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. وَفِي هَذَا الْبَحْثِ الْمُبَارَكِ، يَمَّمْنَا وُجُوهَنَا شَطْرَ "الْكَلَامِ الْحَارِّ" الَّذِي صَدَرَ عَنْ مَعْدِنِ الْعِصْمَةِ فِي لَحَظَاتِ الْمُوَاجَهَةِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَرَسْمِ مَعَالِمِ الطَّرِيقِ لِلثَّائِرِينَ وَالْعَابِدِينَ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ.

لَقَدْ قُمْنَا فِي هَذَا الشَّرْحِ بِتَفْكِيكِ مَبَانِي هَذَا الْكَلَامِ الْعَلَوِيِّ وَفْقَ رُؤْيَةٍ جَمَعَتْ بَيْنَ بَيَانِ الْمُفْرَدَةِ وَتَحْلِيلِ مَقَاصِدِهَا الْعِرْفَانِيَّةِ وَالْفَلْسَفِيَّةِ، وَقَدِ انْتَهَجْنَا فِي ذَلِكَ تَقْسِيمًا مَنْهَجِيًّا قَائِمًا عَلَى مَطَالِبَ مُتَكَامِلَةٍ:

أَوَّلًا: (مِحْوَرُ الطَّاعَةِ وَالانْقِيَادِ) لِاسْتِجْلَاءِ مَعْنَى الْفَنَاءِ فِي الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ.

ثَانِيًا: (مِحْوَرُ الرِّفْقِ وَنَشَاطِ الْقَلْبِ) لِتَبْيَانِ التَّوَازُنِ بَيْنَ التَّكْلِيفِ وَلَطَافَةِ النَّفْسِ.

ثَالِثًا: (مِحْوَرُ الْحَذَرِ وَدَوَامِ الاسْتِقَامَةِ) لِلْبَحْثِ فِي حَقِيقَةِ الارْتِبَاطِ بِالْآخِرَةِ وَجَعْلِ الدُّنْيَا مَنْطَلَقًا لِلْبِنَاءِ.

رَابِعًا: (مِحْوَرُ الاعْتِزَالِ وَالتَّأْثِيرِ) لِتَحْلِيلِ أَثَرِ الْمُسَانَخَةِ وَحِمَايَةِ جَوْهَرِ الْإِنْسَانِ.

خَامِسًا: (مِحْوَرُ التَّعْظِيمِ وَالْحِلْمِ) لِتَحْقِيقِ كَمَالِ الْهَيْبَةِ وَقَهْرِ جُنْدِ الْغَضَبِ بِسُلْطَانِ الْعَقْلِ.

وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ هَذَا السَّفَرُ الْفِكْرِيُّ بَابًا لِلْبَصِيرَةِ وَزَادًا لِلْمَسِيرِ، وَقَدْ تَمَّ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى إِتْمَامُ هَذَا الْجُهْدِ مُسْتَمِدًّا لِلْبَرَكَةِ وَالنُّورِ مِنْ جِوَارِ الْمَرْقَدِ الشَّرِيفِ لِسَفِيرِ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ (عَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ) وَبَابِهِ الْأَوَّلِ، الشَّيْخِ الْجَلِيلِ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ الْعَمْرِيِّ (رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ)، فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ، الثَّانِي مِنْ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ لِعَامِ سَبْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ (1447هـ). نَسْأَلُ اللَّهَ الثَّبَاتَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَالْفَوْزَ بِوَلَايَةِ آلِ مُحَمَّدٍ فِي الدَّارَيْنِ.

إِهْدَاءٌ.. إِلَى مَنَارَاتِ الْوُجُودِ

إِلَى سِرِّ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَرُوحِ الْوُجُودِ، وَسَبَبِ الِاتِّصَالِ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ؛ مَوْلَانَا صَاحِبِ الْعَصْرِ وَالزَّمَانِ (أَرْوَاحُنَا لِتُرَابِ مَقْدَمِهِ الْفِدَاءُ)، عَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ وَجَعَلَنَا مِنْ خُلَصَاءِ أَعْوَانِهِ وَالْمُسْتَشْهَدِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ..

إِلَى رُوحِ إِمَامِنَا الشَّهِيدِ الْخَامِنَئِيِّ الْعَظِيمِ (رِضْوَانُ اللَّهِ وَفَضْلُهُ تَعَالَى عَلَيْهِ)، الَّذِي خَطَّ بِمَوَاقِفِهِ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ، وَأَحْيَا فِي نُفُوسِنَا عِزَّةَ الِانْقِيَادِ لِلْحَقِّ حَتَّى لَحِقَ بِمَنَازِلِ السُّعَدَاءِ..

إِلَى أَرْوَاحِ الشُّهَدَاءِ الْأَبْرَارِ، الَّذِينَ سَارُوا عَلَى نَهْجِ أَبِي الْأَحْرَارِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فَبَذَلُوا الْمُهَجَ دُونَ الدِّينِ، وَصَارُوا مَنَارًا لِلسَّائِرِينَ فِي دُرُوبِ الْحُرِّيَّةِ وَالْفِدَاءِ..

وَإِلَى الْقَلْبِ الَّذِي نَبَضَ بِالطُّهْرِ، إِلَى مَنْ كَانَ دُعَاؤُهَا لِي حِرْزًا وَعَطَاؤُهَا مَدَدًا؛ إِلَى رُوحِ وَالِدَتِي (رَحِمَهَا اللَّهُ) وَجَعَلَ مَثْوَاهَا فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ مَعَ الصِّدِّيقَةِ الطَّاهِرَةِ، وَحَفِظَ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِ الْوُدِّ بِحِفْظِهِ الْجَمِيلِ..

أَهْدِي هَذَا الْجُهْدَ الْمُتَوَاضِعَ، سَائِلًا الْمَوْلَى أَنْ يَقْبَلَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ.

الكتاب التاسع والستون من كتب أميرالمؤمنين عليه السلام المذكور في كتاب نهج البلاغة..الحارث الهمداني من أصحاب الإمام المقربين والصفوة من شيعته ومن ذوي الأقوال والاجتهاد في الفقه والفتيا وهذا كتاب من الإمام له يوصيه ببعض الوصايا القيمة التي لا بد من العمل بها.

وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَاسْتَنْصِحْهُ وَأَحِلَّ حَلَالَهُ وَحَرِّمْ حَرَامَهُ. وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ، وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً وَآخِرَهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ. وَعَظِّمِ اسْمَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ. وَأَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ. وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ وَيُكْرَهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوِ اعْتَذَرَ مِنْهُ. وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبَالِ الْقَوْلِ. وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِباً، وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا. وَاكْظِمِ الْغَيْظَ وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ وَاحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ. وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَيْكَ وَلَا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكَ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ. وَاحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ. وَاسْكُنِ الْأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ وَقِلَّةَ الْأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ. وَاقْصُرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ، وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ وَمَعَارِيضُ الْفِتَنِ. وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ. وَ لَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إِلَّا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ.

وَأَطِعِ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا، وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ وَارْفُقْ بِهَا وَلَا تَقْهَرْهَا وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَتَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا، وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ، وَوَقِّرِ اللَّهَ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ؛ وَاحْذَرِ الْغَضَبَ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ، وَالسَّلَامُ.

رِسَالَةٌ فِي مَبَانِي الِاتِّصَالِ بِالْكِتَابِ: قِرَاءَةٌ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ

«وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَاسْتَنْصِحْهُ وَأَحِلَّ حَلَالَهُ وَحَرِّمْ حَرَامَهُ»

أَوَّلاً: الْمَطْلَبُ الْبَاطِنِيُّ (الِاتِّصَالُ بِالنُّورِ وَقَوْسُ التَّكَامُلِ)

يُشِيرُ النَّصُّ فِي عُمْقِهِ إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مُجَرَّدَ رُسُومٍ مَكْتُوبَةٍ، بَلْ هُوَ "الْحَقِيقَةُ الْمُتَعَالِيَةُ" الَّتِي تَتَجَلَّى لِلْبَشَرِ.

جَوْهَرُ الْحَبْلِ الْمَمْدُودِ: يُمَثِّلُ الْقُرْآنُ "الْعَهْدَ الْإِلَهِيَّ" وَالْقَنَاةَ الرَّابِطَةَ بَيْنَ عَالَمِ الْمَادَّةِ الْمَحْدُودِ وَعَالَمِ الْقُدْسِ الْمُطْلَقِ. التَّمَسُّكُ هُنَا يَعْنِي انْجِذَابَ النَّفْسِ نَحْوَ أَصْلِهَا النُّورَانِيِّ، وَهُوَ فِعْلُ "تَجَرُّدٍ" عَنِ الْأَرْضِيَّاتِ لِلصُّعُودِ فِي مَرَاقِي الْكَمَالِ.

الِاسْتِنْصَاحُ كَجِلَاءٍ لِلْمِرْآةِ: عِنْدَمَا يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ، فَإِنَّهُ لَا يَطْلُبُ مَعْلُومَةً جَافَّةً، بَلْ يَطْلُبُ "انْعِكَاسَ الْحَقِّ" فِي صَفْحَةِ قَلْبِهِ. فَالِاسْتِنْصَاحُ هُوَ كَشْفٌ لِلْحُجُبِ الَّتِي رَانَتْ عَلَى الْبَصِيرَةِ، حَيْثُ تَقُومُ الْآيَاتُ بِدَوْرِ الْمُطَهِّرِ لِلْبَاطِنِ مِنَ الْكُدُورَاتِ الْوَهْمِيَّةِ.

الْفَنَاءُ فِي الْأَمْرِ: إِنَّ أَعْلَى مَرَاتِبِ التَّمَسُّكِ هِيَ أَنْ يَصِيرَ الْقُرْآنُ هُوَ "الْمُحَرِّكَ الْبَاطِنِيَّ" لِلْإِنْسَانِ، فَلَا يَرَى فِي الْوُجُودِ إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللهُ، وَهَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْأَفْعَالِيُّ فِي أَجْلَى صُوَرِهِ.

ثَانِياً: الْمَطْلَبُ الْأَخْلَاقِيُّ (صِيَاغَةُ الذَّاتِ وَتَقْوِيمُ الْمَلَكَاتِ)

يَنْتَقِلُ الْأَمْرُ مِنَ الْمُشَاهَدَةِ الْقَلْبِيَّةِ إِلَى الِانْضِبَاطِ السُّلُوكِيِّ، لِيَكُونَ الْخُلُقُ ثَمَرَةً لِلْإِيمَانِ:

التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ كَرِيَاضَةٍ نَفْسِيَّةٍ: إِنَّ الِالْتِزَامَ بِـ «أَحِلَّ حَلَالَهُ وَحَرِّمْ حَرَامَهُ» هُوَ عَمَلِيَّةُ تَهْذِيبٍ مُسْتَمِرَّةٍ. فَالْحَلَالُ يُنَمِّي فِي النَّفْسِ نُورَ الطَّاعَةِ، وَالْحَرَامُ يَمْنَعُ عَنْهَا ظُلْمَةَ التَّسَفُّلِ. هَذِهِ الثُّنَائِيَّةُ تَبْنِي "الْمَلَكَةَ الْفَاضِلَةَ" الَّتِي تَمْنَحُ الْإِنْسَانَ حَصَانَةً ضِدَّ التَّحَلُّلِ الْأَخْلَاقِيِّ.

الِاسْتِقَامَةُ الْقَلْبِيَّةُ: النَّصِيحَةُ الْقُرْآنِيَّةُ تَعْمَلُ كَـ "مِيزَانِ قُسْطٍ" لِلضَّمِيرِ. فَالْأَخْلَاقُ هُنَا لَيْسَتْ عَرَضِيَّةً أَوْ مَصْلَحِيَّةً، بَلْ هِيَ أَخْلَاقٌ "مَبْدَئِيَّةٌ" تَنْبُعُ مِنْ هَيْبَةِ الْخَالِقِ وَجَمَالِ التَّشْرِيعِ.

بِنَاءُ الشَّخْصِيَّةِ الرِّسَالِيَّةِ: التَّمَسُّكُ بِالْقُرْآنِ يُورِثُ صِفَاتِ الصَّبْرِ، وَالْحِلْمِ، وَالْعَدْلِ، لِأَنَّ الْمُتَمَسِّكَ يَرَى نَفْسَهُ جُزْءاً مِنْ مَنْظُومَةٍ كَوْنِيَّةٍ كُبْرَى لَا مَجَالَ فِيهَا لِلْعَبَثِ.

ثَالِثاً: الْمَطْلَبُ الْفَلْسَفِيُّ (الْبُرْهَانُ وَالْمِعْيَارِيَّةُ)

الْعَقْلُ الْكُلِّيُّ: يُعَدُّ الْقُرْآنُ فِي الْمَنْظُورِ الْفَلْسَفِيِّ "الْعَقْلَ الظَّاهِرَ"، وَالْعَقْلُ هُوَ "الْقُرْآنَ الْبَاطِنَ". التَّمَسُّكُ بِالْحَبْلِ هُوَ تَطْبِيقٌ لِلْبُرْهَانِ الْإِلَهِيِّ عَلَى الْوَاقِعِ الْإِنْسَانِيِّ.

أَصَالَةُ الْقِيَمِ: تَقُومُ فَلْسَفَةُ «حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ» عَلَى قَاعِدَةِ "الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ الذَّاتِيَّيْنِ" الْمُؤَيَّدَيْنِ بِالْوَحْيِ؛ حَيْثُ إِنَّ مَا أَمَرَ بِهِ الْقُرْآنُ فِيهِ صَلَاحُ الْمَوْجُودِ، وَمَا نَهَى عَنْهُ فِيهِ فَسَادُ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَالْفَرْدِيِّ.

رَابِعاً: الْمَطْلَبُ الْبَيَانِيُّ (إِعْجَازُ السَّبْكِ)

التَّصْوِيرُ الْفَنِّيُّ: «حَبْلِ الْقُرْآنِ» صُورَةٌ تُمَثِّلُ الِاعْتِصَامَ فِي لُجَّةِ الِاضْطِرَابِ. فَكَمَا أَنَّ الْحَبْلَ يُنْقِذُ مِنَ الْغَرَقِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُنْقِذُ الْعَقْلَ مِنَ التِّيهِ وَالْحَيْرَةِ الوجُودِيَّةِ.

الْإِيجَازُ الْجَامِعُ: جَمَعَتِ الْعِبَارَةُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ (اسْتَنْصِحْهُ) وَالْعَمَلِ (أَحِلَّ وَحَرِّمْ)، وَهُوَ جَمْعٌ بَيْنَ "الْحِكْمَةِ النَّظَرِيَّةِ" وَ"الْحِكْمَةِ الْعَمَلِيَّةِ" بِأَقَلِّ أَلْفَاظٍ وَأَبْلَغِ مَعَانٍ.

خَامِسًا: الشَّوَاهِدُ وَالْمُؤَيِّدَاتُ (مِحْوَرُ الِاسْتِمْسَاكِ وَالْبَصِيرَةِ)

تَتَجَلَّى هَذِهِ الشَّوَاهِدُ كَقَوَاعِدَ وُجُودِيَّةٍ تَرْبِطُ السَّالِكَ بِحَبْلِ الْعِصْمَةِ، لِتَكُونَ لَهُ وِقَايَةً مِنْ حَيْرَةِ الضَّلَالِ:
أَوَّلًا: مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (ثَبَاتُ الِاتِّصَالِ)
جَوْهَرُ النَّجَاةِ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (١)؛ وَهُوَ أَمْرٌ إِلَهِيٌّ بِالِاتِّحَادِ مَعَ مَصْدَرِ النُّورِ، حَيْثُ لَا يَعُودُ الِاسْتِمْسَاكُ جُهْدًا بَرَّانِيًّا، بَلْ صَيْرُورَةً وُجُودِيَّةً يَكُونُ بِهَا السَّالِكُ عَيْنَ الِاسْتِقَامَةِ.
ثَانِيًا: مِنَ الْإِشْرَاقِ النَّبَوِيِّ (غِذَاءُ الرُّوحِ)
الْمَأْدُبَةُ الْإِلَهِيَّةُ: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «الْقُرْآنُ مَأْدُبَةُ اللَّهِ، فَتَعَلَّمُوا مَأْدُبَتَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» (٢)؛ وَفِي هَذَا تَوْجِيهٌ عِرْفَانِيٌّ لِأَنَّ الِاسْتِنْصَاحَ بِالْقُرْآنِ هُوَ حَالَةُ (تَغَذٍّ رُوحِيٍّ) تَنْتَقِلُ بِهَا الْكَمَالَاتُ مِنَ الْمَنْهَلِ الْإِلَهِيِّ إِلَى وِعَاءِ النَّفْسِ.
ثَالِثًا: مِنْ نُورِ الْعِصْمَةِ (وِقَايَةُ الْيَقِينِ)
دَفْعُ التِّيَاهَانِ: يَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقَّ مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ يَتَنَكَّبِ الْفِتَنَ» (٣)؛ وَهِيَ لَطِيفَةٌ فَلْسَفِيَّةٌ تُبَيِّنُ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ (الْمِيزَانُ الْمِعْيَارِيُّ) لِلْوُجُودِ، فَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الْكِتَابَ نَاصِحًا بَقِيَ مَرْهُونًا لِظُلُمَاتِ الِاشْتِبَاهِ.

سَادِساً: مَطْلَبُ الْفَوَائِدِ (الثَّمَرَاتُ الْوُجُودِيَّةُ لِلِاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ)

فَائِدَةُ "الْأَمْنِ الْفِكْرِيِّ" وَدَفْعِ الْحَيْرَةِ: إِنَّ التَّمَسُّكَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ يُفِيدُ فِي تَحْصِيلِ مَلَكَةِ (الْفُرْقَانِ)، حَيْثُ تَتَمَيَّزُ لَدَى الْإِنْسَانِ السُّبُلُ، فَلَا تَتَخَطَّفُهُ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ عَلَيْهِ الشُّبُهَاتُ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ، لِأَنَّهُ اسْتَنَدَ إِلَى "رُكْنٍ شَدِيدٍ" لَا يَنْقَطِعُ.
فَائِدَةُ "الشِّفَاءِ الْبَاطِنِيِّ": مِنَ الثَّمَرَاتِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى الِاسْتِنْصَاحِ الْقُرْآنِيِّ هِيَ (تَزْكِيَةُ النَّفْسِ) مِنْ أَدْوَائِهَا الْخَفِيَّةِ كَالْكِبْرِ وَالْحَسَدِ وَقَسَاوَةِ الْقَلْبِ؛ فَالْقُرْآنُ نَاصِحٌ لَا يَغُشُّ، وَمَنْ صَدَقَ مَعَهُ فِي الطَّلَبِ، مَنَحَهُ "رِقَّةَ السِّرِّ" وَحُضُورَ الشُّهُودِ.
فَائِدَةُ "الِانْضِبَاطِ التَّشْرِيعِيِّ": إِنَّ تَنْفِيذَ (أَحِلَّ حَلَالَهُ وَحَرِّمْ حَرَامَهُ) يُحَقِّقُ لِلْمُؤْمِنِ "الِاسْتِقَامَةَ الْفِعْلِيَّةَ"، بِحَيْثُ يَتَحَوَّلُ الِاتِّبَاعُ إِلَى طَبِيعَةٍ ثَانِيَةٍ، مِمَّا يُقَلِّلُ الْكُلْفَةَ فِي أَدَاءِ الطَّاعَاتِ وَيَزِيدُ مِنَ النَّفْرَةِ الْوُجُودِيَّةِ عَنِ الْمَعَاصِي.
فَائِدَةُ "الْبَرَكَةِ فِي الْعُمُرِ وَالْعَمَلِ": حِينَمَا يَكُونُ الْقُرْآنُ هُوَ "الْمِعْيَارَ" فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، يَتَّصِلُ الْفِعْلُ الْبَشَرِيُّ الْمَحْدُودُ بِالْقَصْدِ الْإِلَهِيِّ الْمُطْلَقِ، فَتَنْزِلُ الْبَرَكَةُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَيَكُونُ عُمُرُ الْإِنْسَانِ مَسَاراً لِـ (الزِّيَادَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ).
فَائِدَةُ "تَحْقِيقِ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ": إِنَّ مَجْمُوعَ هَذِهِ الْمَطَالِبِ يُثْمِرُ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنَ (الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ)؛ وَهِيَ حَالَةٌ مِنَ الرِّضَا وَالسَّكِينَةِ وَالتَّسْلِيمِ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا مَنْ جَعَلَ الْقُرْآنَ لَهُ "إِمَاماً" وَ"قَائِداً" إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ

إِنَّ مَنْظُومَةَ الْحَرَكَةِ نَحْوَ اللَّهِ تَتَلَخَّصُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؛ فَالْبِدَايَةُ تَمَسُّكٌ بِالْغَيْبِ، وَالْمَسِيرُ اسْتِقَاءٌ مِنَ النُّورِ، وَالنِّهَايَةُ اسْتِقَامَةٌ عَلَى الْجَادَّةِ. بِذَلِكَ يَتَحَقَّقُ كَمَالُ الْإِنْسَانِ وَيَصِيرُ "قُرْآناً نَاطِقاً" يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ.

الْمَصَادِرُ:

(١) سُورَةُ الزُّخْرُف، الْآيَةُ ٤٣.

(٢) الْمَصْدَرُ: بِحَارُ الْأَنْوَارِ، الْعَلَّامَةُ الْمَجْلِسِيُّ، ج ٨٩، ص ١٩.

(٣) الْمَصْدَرُ: الْمَحَاسِنُ، أَبُو جَعْفَرٍ الْبَرْقِيُّ، ج ١، ص ٢١٦.

نَظَرِيَّةُ الاِعْتِبَارِ وَتَمَاثُلِ السُّنَنِ التَّارِيخِيَّةِ : قِرَاءَةٌ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ

«وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ، وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً وَآخِرَهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ»
تُمَثِّلُ مَقُولَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) خَارِطَةَ طَرِيقٍ مَعْرِفِيَّةٍ تَنْقُلُ الذِّهْنَ مِنَ الاِسْتِغْرَاقِ فِي جُزْئِيَّاتِ الْحَوَادِثِ إِلَى كُلِّيَّاتِ السُّنَنِ.

أَوَّلاً: الْمَطْلَبُ الْبَاطِنِيُّ (شُهُودُ الْحَقِيقَةِ فِي مَرَايَا الزَّمَانِ)

يَنْظُرُ التَّحْلِيلُ الْمَعْرِفِيُّ الْعَمِيقُ إِلَى الزَّمَانِ لَيسَ كَمُجَرَّدِ أَيَّامٍ تَمْضِي، بَلْ كَمَيْدَانٍ لِتَجَلِّي الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَانْعِكَاسِ إِرَادَتِهِ:
التَّصْدِيقُ بِمَا سَلَفَ كَأَصَالَةٍ وُجُودِيَّةٍ: «وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ» تَعْنِي الرُّجُوعَ إِلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَبْرَ الْعُصُورِ. بَاطِنِيّاً، هُوَ اتِّصَالُ "الْحَاضِرِ" بِـ "الْأَزَلِ"؛ فَالْحَقُّ وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ، وَتَصْدِيقُ مَا مَضَى يُعَزِّزُ مَلَكَةَ الْيَقِينِ وَيَرْبِطُ الذَّاتَ بِسِلْسِلَةِ النُّورِ الْمُمْتَدَّةِ مُنْذُ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ.
شُهُودُ الْفَنَاءِ فِي "الْحَائِلِ الْمُفَارِقِ": تَعْنِي رُؤْيَةَ بَاطِنِ الدُّنْيَا لَا ظَاهِرِهَا؛ فَالدُّنْيَا فِي جَوْهَرِهَا حَرَكَةٌ دَائِبَةٌ لِلِانْفِصَالِ. التَّوَجُّهُ الْبَاطِنِيُّ هُنَا يَقْتَضِي "تَخْلِيَةَ" الْقَلْبِ مِنَ السَّكَنِ إِلَى مَا يَزُولُ، وَتَوْجِيهِ الْقَصْدِ نَحْوَ "الْبَاقِي" الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْفِرَاقَ.
وَحْدَةُ الْمَجْلَى الزَّمَانِيِّ: «فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ تَتَكَرَّرُ فِي صُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَالْمُبْصِرُ بِنُورِ الْبَصِيرَةِ يَرَى الْآخِرَ فِي الْأَوَّلِ، وَيَشْهَدُ كَمَالَ النِّهَايَةِ فِي مَطَاوِي الْبِدَايَةِ.

ثَانِيّاً: الْمَطْلَبُ الْأَخْلَاقِيُّ (رِيَاضَةُ النَّفْسِ بِتَفْعِيلِ الْعِبْرَةِ)

يُحَوِّلُ النَّصُّ التَّارِيخَ الْبَشَرِيَّ إِلَى مَدْرَسَةٍ لِتَهْذِيبِ السُّلُوكِ وَتَقْوِيمِ الْمَلَكَاتِ:
الِاعْتِبَارُ كَمَلَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ رَاسِخَةٍ: الِاعْتِبَارُ لُغَةً مِنَ "الْعُبُورِ"، وَأَخْلَاقِيّاً هُوَ الْعُبُورُ مِنْ مَوَاقِفِ الْغَابِرِينَ إِلَى مَوَاعِظِ الْحَاضِرِ. فَالْمُسْتَقْبَلُ لَدَى النَّفْسِ الْمُهَذَّبَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى "اسْتِقْرَاءِ" الْمَاضِي؛ لِكَي لَا تَقَعَ فِي فَخِّ الْغُرُورِ بِالْبِدَايَاتِ الزَّائِفَةِ.
تَقْوِيمُ الرَّغْبَةِ بِفَهْمِ الزَّوَالِ: وَصْفُ الدُّنْيَا بِأَنَّهَا «حَائِلٌ مُفَارِقٌ» يَبْنِي فِي النَّفْسِ خُلُقَ "الزُّهْدِ الْبَصِيرِ".
الْحَائِلُ هُوَ الْمُتَبَدِّلُ الَّذِي لَا قَرَارَ لَهُ، وَالْمُفَارِقُ هُوَ الَّذِي يَنْسَلِخُ عَنْ صَاحِبِهِ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْأَمَلِ، وَهَذَا الْإِدْرَاكُ يُورِثُ السَّكِينَةَ وَالْقَنَاعَةَ.
الْيَقَظَةُ لِلْمَصِيرِ الْكُلِّيِّ: «آخِرُهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا» دَعْوَةٌ لِلْمُحَاسَبَةِ؛ فَالْمَسِيرُ الْإِنْسَانِيُّ يَعُودُ دَائِماً إِلَى النُّقْطَةِ الَّتِي بَدَأَ مِنْهَا (التُّرَابِ)، مِمَّا يُوجِبُ الِاشْتِغَالَ بِمَا يَبْقَى أَثَرُهُ بَعْدَ الْفِرَاقِ.

ثَالِثاً: الْمَطْلَبُ الْفَلْسَفِيُّ (مَبْدَأُ الِاطِّرَادِ وَالسَّيْرُورَةِ)

قَانُونُ تَمَاثُلِ الْأَمْثَالِ: تُؤَسِّسُ جُمْلَةُ «بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً» لِقَاعِدَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَقُولُ بِـ "تَمَاثُلِ السُّنَنِ". فَالْعَقْلُ الْبُرْهَانِيُّ يَجِدُ أَنَّ الْمُقَدِّمَاتِ التَّارِيخِيَّةَ الْوَاحِدَةَ تُفْضِي إِلَى نَتَائِجَ وَاحِدَةٍ، مِمَّا يَجْعَلُ مِنْ دِرَاسَةِ الْمَاضِي ضَرُورَةً عَقْلِيَّةً لِفَهْمِ الْآتِي.

فَلْسَفَةُ النِّظَامِ الدَّائِرِيِّ: «آخِرُهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا» تُشِيرُ إِلَى أَنَّ عَالَمَ الْمَادَّةِ نِظَامٌ مَحْكُومٌ بِالْفَنَاءِ؛ فَالْقُوَّةُ تؤول إِلَى ضَعْفٍ، وَالظُّهُورُ يؤول إِلَى خَفَاءٍ، وَهَذَا الصِّرَاعُ الزَّمَانِيُّ يُؤَكِّدُ ضَرُورَةَ الِارْتِبَاطِ بِالْمُحَرِّكِ الثَّابِتِ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ.

رَابِعاً: الْمَطْلَبُ الْبَيَانِيُّ (بَلَاغَةُ الْإِيجَازِ وَالتَّقَابُلِ)

التَّضَادُّ الْمَعْرِفِيُّ: جَمَعَ النَّصُّ بَيْنَ «الْمَاضِي» وَ «الْبَقِيِّ»، وَبَيْنَ «الْأَوَّلِ» وَ «الْآخِرِ»، لِيُحِيطَ بِالزَّمَانِ كُلِّهِ فِي عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِلْوِ كَعْبِ الْمُتَكَلِّمِ فِي مَدَارِجِ الْبَيَانِ.
الْبُرْهَانُ التَّعْلِيلِيُّ: اسْتِخْدَامُ "فَـ" التَّعْلِيلِيَّةِ فِي «فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً» يَرْبِطُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِالِاعْتِبَارِ وَبَيْنَ سَبَبِهِ الْمَنْطِقِيِّ، مِمَّا يَجْعَلُ النَّصَّ حُجَّةً عَقْلِيَّةً بَالِغَةً.

خَامِسًا: الشَّوَاهِدُ النَّقْلِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ (مِحْوَرُ الِاعْتِبَارِ وَسَيَلَانِ الْوُجُودِ)

تَتَجَلَّى هَذِهِ الشَّوَاهِدُ كَبَرَاهِينَ وُجُودِيَّةٍ تُكَشِّفُ لِلسَّالِكِ حَقِيقَةَ الزَّمَانِ وَتَحَوُّلَاتِ الْأَعْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ:
أَوَّلًا: مِنَ الْأُفُقِ التَّنْزِيلِيِّ (فَلْسَفَةُ السُّنَنِ)
تَأْصِيلُ الِاعْتِبَارِ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» (١)؛ وَهُوَ دَعْوَةٌ عِرْفَانِيَّةٌ لِلْخُرُوجِ مِنْ ضِيقِ (الْآنِ) إِلَى سَعَةِ (الِاعْتِبَارِ)؛ حَيْثُ يُعَدُّ السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ بَحْثًا عَنِ الْوَحْدَةِ فِي كَثْرَةِ الْحَوَادِثِ، وَاسْتِجْلَاءً لِلْقَوَانِينِ الْإِلَهِيَّةِ الثَّابِتَةِ.
ثَانِيًا: مِنَ الْإِشْرَاقِ النَّبَوِيِّ (الْوَعْيُ بِالْغَيْرِ)
تَحَقُّقُ السَّعَادَةِ: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ» (٢)؛ وَفِي هَذَا تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ لِقَاعِدَةِ (تَشَابُهِ الْأَحْدَاثِ)، حَيْثُ يَنْتَقِلُ الْعَقْلُ مِنَ الِانْفِعَالِ بِالتَّجْرِبَةِ الشَّخْصِيَّةِ إِلَى التَّأَمُّلِ فِي آثَارِ السَّابِقِينَ.
ثَالِثًا: فِي مَنْطِقِ الْحِكْمَةِ (طَبِيعَةُ الْحَائِلِ الْمُفَارِقِ)
سَيَلَانُ الْمَادَّةِ: يَرَى الْحُكَمَاءُ أَنَّ "الْحَرَكَةَ الْجَوْهَرِيَّةَ" هِيَ خَاصِّيَّةُ الْمَادَّةِ. وَوَصْفُ الدُّنْيَا بِـ «الْحَائِلِ الْمُفَارِقِ» هُوَ أَدَقُّ وَصْفٍ مِيتَافِيزِيقِيٍّ لِعَالَمِ النَّاسُوتِ؛ حَيْثُ تُحِيلُ الْمَادَّةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَمَعْشُوقِهِ، ثُمَّ تُفَارِقُهُ بِحُكْمِ الزَّوَالِ (٣).

سَادِساً: مَطْلَبُ الْفَوَائِدِ (ثَمَرَاتُ الِاعْتِبَارِ فِي مَقَامَاتِ السُّلُوكِ)

الْبَصِيرَةِ مِنَ الِانْخِدَاعِ بِالْآثَارِ:
إِنَّ الْفَائِدَةَ الْأُولَى لِلِاعْتِبَارِ بِمَا مَضَى هِيَ كَسْرُ "سُلْطَةِ الْمَظَاهِرِ"؛ فَإِذَا أَدْرَكَ السَّالِكُ أَنَّ الْبِدَايَاتِ (بَهْرَجَ الدُّنْيَا) لَاحِقَةٌ بِالنِّهَايَاتِ (الْفَنَاءِ)، لَمْ يَقَعْ فِي فَخِّ الطُّمَأْنِينَةِ إِلَى الْعَوَارِضِ الزَّائِلَةِ، فَيَبْقَى قَلْبُهُ مُتَّصِلاً بِالْمُسَبِّبِ لَا بِالسَّبَبِ.
اسْتِشْرَافُ الْغَيْبِ بِشُهُودِ السُّنَنِ:
مِنْ فَوَائِدِ (تَمَاثُلِ السُّنَنِ) أَنَّهَا تَمْنَحُ الْمُؤْمِنَ قُدْرَةً عَلَى نَوْعٍ مِنَ "الشُّهُودِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ"؛ لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْأَوَّلِينَ، عَرَفَ كَيْفَ سَتَجْرِي فِي الْآخِرِينَ، مِمَّا يُورِثُهُ حَالاً مِنَ "الِاسْتِعْدَادِ" الدَّائِمِ وَيَقِينًا بِمَآلَاتِ الْأُمُورِ قَبْلَ وُقُوعِهَا.
تَرْسِيخُ مَقَامِ الرِّضَا وَتَسْكِينُ الِاضْطِرَابِ:

حِينَ يَعْلَمُ السَّالِكُ أَنَّ الدُّنْيَا فِي طَبِيعَتِهَا «حَائِلٌ مُفَارِقٌ»، يَزُولُ عَنْهُ أَلَمُ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَ وَقَلَقُ الْخَوْفِ مِمَّا هُوَ آتٍ؛ لِأَنَّ "الْفِرَاقَ" هُنَا لَيسَ حَادِثاً طَارِئاً بَلْ هُوَ جَوْهَرُ الْمَادَّةِ، وَهَذَا الْإِدْرَاكُ يُفْضِي إِلَى سَكِينَةٍ نَفْسِيَّةٍ تَقُومُ عَلَى "الرِّضَا بِالْقَضَاءِ".

تَوْفِيرُ الْجُهْدِ فِي طَلَبِ الْمَحَالِ:

الِاعْتِبَارُ يُعَلِّمُ الْعَقْلَ أَنَّ طَلَبَ "الْبَقَاءِ" فِي "الْفَانِي" هُوَ طَلَبٌ لِلْمُحَالِ فَلْسَفِيّاً، فَيُوَجِّهُ السَّالِكُ قُوَاهُ وَهِمَّتَهُ نَحْوَ "الْمَطْلَبِ الْأَسْمَى" وَهُوَ اتِّصَالُ النَّفْسِ بِحَضْرَةِ الْقُدْسِ الَّتِي لَا حَيْلُولَةَ فِيهَا وَلَا فِرَاقَ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ

يَسْتَنْتِجُ هَذَا الْبَحْثُ أَنَّ الرُّؤْيَةَ الْعَلَوِيَّةَ تَدْعُو إِلَى قِرَاءَةِ التَّارِيخِ لَيسَ كَقِصَصٍ مَنْسِيَّةٍ، بَلْ كَـ "قَوَانِينَ صَارِمَةٍ"؛ لِيَبْقَى الْإِنْسَانُ مُتَيَقِّظاً لِحَرَكَةِ الزَّمَانِ، مُسْتَعِدّاً لِلرَّحِيلِ بِتَصْحِيحِ الْمَسَارِ، مُسْتَمْسِكاً بِالْحَقِّ الَّذِي لَا يَزُولُ بِزَوَالِ الدُّنْيَا.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَان، الْآيَةُ ١٣٧.
(٢) الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهُ، ج ٤، ص ٣٩٤.
(٣) الْعَلَّامَةُ الْمَجْلِسِيُّ، بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٧٠، ص ٨٨.

تَعْظِيمُ الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ: دِرَاسَةٌ فِي أَدَبِ الذِّكْرِ وَمُوجِبَاتِ الْحَقِّ

«وَعَظِّمِ اسْمَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ»

إِنَّ هَذَا الْبَيَانَ الْعَلَوِيَّ يُؤَسِّسُ لِقَاعِدَةِ "التَّلَازُمِ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى"؛ فَاسْمُ اللَّهِ لَيْسَ عُنْوَاناً ذِهْنِيّاً مُجَرَّدًا، بَلْ هُوَ "تَجَلٍّ لِلْقُدْسِ" عَلَى لِسَانِ الْخَلْقِ. فَالْأَمْرُ بِالتَّعْظِيمِ هُنَا لَيْسَ مَحْصُوراً فِي تَرْكِ الْحَلِفِ الْكَاذِبِ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ دَعْوَةٌ لِـ "صِيَانَةِ الْمُقَدَّسِ" عَنْ الِابْتِذَالِ فِي مَوَاطِنِ اللَّغْوِ وَالْغَفْلَةِ. إِنَّ قَيْدَ «إِلَّا عَلَى حَقٍّ» يَجْعَلُ مِنَ الذِّكْرِ مَسْؤُولِيَّةً وُجُودِيَّةً، حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يَتَطَابَقَ "الْحَقُّ اللِّسَانِيُّ" مَعَ "الْحَقِّ الْقَلْبِيِّ"، لِتَكُونَ حَقِيقَةُ الذَّاكِرِ هِيَ عَيْنُ مَا يَنْطِقُ بِهِ.
يُمَثِّلُ تَعْظِيمُ اسْمِ اللَّهِ مِحْوَرَ "الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ"؛ فَاللِّسَانُ الَّذِي يَعْتَادُ صَوْنَ الِاسْمِ الْمُقَدَّسِ إِلَّا عَلَى حَقٍّ، يَعْتَادُ صَوْنَ الْحَقِيقَةِ فِي كُلِّ شُؤُونِهِ، لِيَكُونَ ذِكْرُهُ بِيَقِينٍ، وَصَمْتُهُ بِفِكْرٍ، وَعَمَلُهُ بِخُلُصٍ. وَهَذَا التَّعْظِيمُ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَرَفٍ لَفْظِيٍّ، بَلْ هُوَ "مِيزَانُ الْوُجُودِ" لِلْمُؤْمِنِ، وَتَدْرِيبٌ دَائِمٌ عَلَى الِارْتِقَاءِ مِنَ اللَّغْوِ إِلَى عَالَمِ الْحَقِّ.

أَوَّلاً: الْمَطْلَبُ الْبَاطِنِيُّ وَالنَّفْسِيُّ (قُدْسِيَّةُ الِاسْمِ وَرِيَاضَةُ الْحُضُورِ)

يُشِيرُ هَذَا التَّوْجِيهُ إِلَى الرَّابِطَةِ الْوُجُودِيَّةِ بَيْنَ "الِاسْمِ" وَبَيْنَ "الْمُسَمَّى"، حَيْثُ يُعَدُّ الِاسْمُ بَاباً لِلْحَضْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ:
فَنَاءُ الذَّاكِرِ فِي الْمَذْكُورِ: تَعْظِيمُ الِاسْمِ بَاطِنِيّاً يَعْنِي اسْتِحْضَارَ هَيْبَةِ الذَّاتِ عِنْدَ جَرَيَانِ اللَّفْظِ عَلَى اللِّسَانِ. فَالِاسْمُ لَيْسَ مُجَرَّدَ صَوْتٍ، بَلْ هُوَ "وِعَاءٌ لِلنُّورِ".
خَطَرُ الِاعْتِيَادِ وَالْإِلْفِ: إِنَّ أَكْبَرَ عَائِقٍ أَمَامَ التَّعْظِيمِ هُوَ تَحَوُّلُ الذِّكْرِ إِلَى عَادَةٍ جَارِيَةٍ بِلَا تَدَبُّرٍ. لِذَا، فَإِنَّ قَيْدَ «إِلَّا عَلَى حَقٍّ» يَفْرِضُ "يَقَظَةً قَلْبِيَّةً" دَائِمَةً، تَكْسِرُ رَتَابَةَ اللَّفْظِ لِيَبْقَى مَصْحُوباً بِدَهْشَةِ الِاتِّصَالِ.
تَفْرِيغُ الْقَلْبِ: لَا يُمْكِنُ تَعْظِيمُ الْمُقَدَّسِ فِي قَلْبٍ مُمْتَلِئٍ بِتَعْظِيمِ الدُّنْيَا. الْحَقُّ الْمَعْرِفِيُّ يَقْتَضِي إِخْلَاءَ الْقَلْبِ مِنَ "الْأَنْدَادِ" لِيَكُونَ اسْمُ اللَّهِ هُوَ الْمَرْكَزَ الْمُهَيْمِنَ.

ثَانِيّاً: الْمَطْلَبُ الْأَخْلَاقِيُّ وَالسُّلُوكِيُّ (أَدَبُ اللِّسَانِ وَرِيَاضَةُ التَّقْوَى)

يَنْتَقِلُ التَّعْظِيمُ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى الْجَوَارِحِ، لِيُرَسِّخَ مَلَكَةَ الْوَرَعِ:
صَوْنُ الْهَيْبَةِ: أَخْلَاقِيّاً، يَنْهَى النَّصُّ عَنْ جَعْلِ اسْمِ اللَّهِ عُرْضَةً لِلْأَيْمَانِ أَوْ سَفَاسِفِ الْأُمُورِ. هَذَا التَّعْظِيمُ يُورِثُ الْحَيَاءَ، فَلَا يُنْطَقُ بِالِاسْمِ إِلَّا فِي مَوَاطِنِ الطَّاعَةِ أَوْ شَهَادَةِ الْحَقِّ.
أَدَبُ الصَّمْتِ السَّاتِرِ: الصَّمْتُ هُنَا لَيْسَ عَدَماً، بَلْ هُوَ "مِحْرَابٌ" يُهَيِّأُ فِيهِ الْقَلْبُ لِلذِّكْرِ. فَتَعْظِيمُ الِاسْمِ يَقْتَضِي أَلَّا يُنْطَقَ بِهِ فِي الْفَرَاغِ الرُّوحِيِّ، بَلْ يُصَانُ بِالصَّمْتِ لِيَبْقَى جَلِيلاً.

ثَالِثاً: الْمَطْلَبُ الْحِكْمِيُّ وَالْكَوْنِيُّ (دَلَالَةُ الِاسْمِ وَالْأَثَرُ الْوُجُودِيُّ)

أَصَالَةُ الْمَعْنَى: يَرَى الْحُكَمَاءُ أَنَّ تَعْظِيمَ الدَّالِّ (الِاسْمِ) هُوَ تَعْظِيمٌ لِلْمَدْلُولِ (الذَّاتِ). فَإِذَا اسْتُعْمِلَ فِي غَيْرِ حَقٍّ، حَصَلَ انْفِصَالٌ بَيْنَ الصُّورَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْعَبَثِ فِي الْمَقَاصِدِ.
التَّنَاغُمُ مَعَ التَّسْبِيحِ الْكَوْنِيِّ: حِينَ يُعَظِّمُ الْمُؤْمِنُ الِاسْمَ، فَإِنَّهُ يَتَنَاغَمُ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ». فَيَتَحَوَّلُ كِيَانُهُ إِلَى جُزْءٍ مِنْ مَنْظُومَةِ التَّقْدِيسِ الْكَوْنِيَّةِ، مِمَّا يُورِثُ سَكِينَةً فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ.

رَابِعاً: الشَّوَاهِدُ وَالتَّطْبِيقَاتُ مِنْ مَدْرَسَةِ الْوَحْيِ وَأَهْلِ التَّحْقِيقِ
تَتَجَلَّى هَذِهِ الدِّرَاسَةُ فِي مَصَادِرِ مَدْرَسَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) وَأَقْوَالِ عُلَمَائِهِمْ:
هَيْبَةُ الِاسْتِهْلَالِ (فِي "الْكَافِي"): رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى «بِسْمِ اللَّهِ»: «الْبَاءُ بَهَاءُ اللَّهِ، وَالسِّينُ سَنَاءُ اللَّهِ، وَالْمِيمُ مُلْكُ اللَّهِ». هَذَا الِاسْتِحْضَارُ لِلْمَعَانِي يَمْنَعُ الذِّكْرَ الْغَافِلَ وَيَجْعَلُ كُلَّ نُطْقٍ مَصْحُوباً بِالتَّعْظِيمِ.
التَّنْزِيهُ الْعَمَلِيُّ (فِي "وَسَائِلِ الشِّيعَةِ"): جَاءَ التَّأْكِيدُ عَلَى صَوْنِ الِاسْمِ الْمَكْتُوبِ عَنِ الْمَوَاطِنِ الدَّنِيَّةِ. هَذَا الْأَدَبُ الْفِقْهِيُّ يُرَبِّي فِي السَّالِكِ "وَعْياً قُدْسِيّاً" يَلْحَظُ الِاسْمَ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ.
مَقَامُ الْحَقِيقَةِ (فِي "مِصْبَاحِ الشَّرِيعَةِ"): يُنْسَبُ لِلْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى الْحَقِيقَةِ فَهُوَ مُطِيعٌ، وَمَنْ ذَكَرَهُ عَلَى الْغَفْلَةِ فَهُوَ عَاصٍ». وَهَذَا هُوَ عَيْنُ "الْحَقِّ" الْمَطْلُوبِ فِي الْبَحْثِ.
رُؤْيَةُ الْمُحَقِّقِينَ: يُشِيرُ أَهْلُ التَّفْسِيرِ وَالْحِكْمَةِ (كَأَصْحَابِ الْمِيزَانِ) إِلَى أَنَّ الِاسْمَ هُوَ طَرِيقُ الِاتِّصَالِ بِالْمُسَمَّى، وَأَنَّ أَدَبَ الذِّكْرِ يَقْتَضِي مُطَابَقَةَ ظَاهِرِ الذَّاكِرِ لِبَاطِنِهِ، وَإِلَّا كَانَ الذِّكْرُ دَعْوَى بِلَا حَقِيقَةٍ.

رَابِعًا: الشَّوَاهِدُ وَالتَّطْبِيقَاتُ مِنْ مَدْرَسَةِ الْوَحْيِ وَأَهْلِ التَّحْقِيقِ

تَتَجَلَّى هَذِهِ الدِّرَاسَةُ كَمَنَارَاتٍ تَهْدِي السَّالِكَ إِلَى مَقَامِ "الذِّكْرِ الْحَقِيقِيِّ"، حَيْثُ يَتَّحِدُ اللَّفْظُ بِالْمَعْنَى وَتَفْنَى الْغَفْلَةُ فِي حُضُورِ التَّعْظِيمِ:
أَوَّلًا: مِنَ الْأُفُقِ التَّنْزِيلِيِّ (تَأْصِيلُ قُدْسِيَّةِ الِاسْمِ)
بَرَكَةُ الِاسْتِعْلَاءِ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (١)؛ وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْبَرَكَةَ وَالنُّمُوَّ الْوُجُودِيَّ يَسْرِيَانِ مِنْ خِلَالِ "الِاسْمِ" لِيَصِلَا إِلَى ذَاتِ الذَّاكِرِ، فَالِاسْمُ هُنَا لَيْسَ صَوْتًا بَسِيطًا بَلْ هُوَ مَجْلًى لِلْكَمَالِ.
تَسْبِيحُ الْحَقِيقَةِ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» (٢)؛ وَهُوَ أَمْرٌ بِتَنْزِيهِ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ بِوَاسِطَةِ الِاسْمِ، لِيَكُونَ الذِّكْرُ مِحْوَرًا يَدُورُ حَوْلَهُ كَيَانُ السَّالِكِ تَعْظِيمًا وَهَيْبَةً.
ثَانِيًا: هَيْبَةُ الِاسْتِهْلَالِ (سِيمِيَاءُ الذَّاتِ)
تَجَلِّي الصِّفَاتِ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ التَّسْمِيَةِ: «الْبَاءُ بَهَاءُ اللَّهِ، وَالسِّينُ سَنَاءُ اللَّهِ، وَالْمِيمُ مَجْدُ اللَّهِ» (٣)؛ وَفِي هَذَا الِاعْتِبَارِ انْتِقَالٌ مِنَ الصُّورَةِ اللَّفْظِيَّةِ إِلَى الشُّهُودِ الصِّفَاتِيِّ، حَيْثُ يَمْنَعُ هَذَا الِاسْتِحْضَارُ لِلْمَعَانِي "الذِّكْرَ الْغَافِلَ".
ثَالِثًا: التَّنْزِيهُ الْعَمَلِيُّ (قُدْسِيَّةُ الْأَثَرِ)
الْأَدَبُ الشُّهُودِيُّ: جَاءَ التَّأْكِيدُ فِي مَدْرَسَةِ الْفِقْهِ الْعَالِي عَلَى ضَرُورَةِ صَوْنِ "الِاسْمِ الْمَكْتُوبِ" عَنِ الْمَوَاطِنِ الدَّنِيَّةِ (٤)؛ وَهَذَا لَيْسَ مُجَرَّدَ حُكْمٍ تَعَبُّدِيٍّ، بَلْ هُوَ تَرْبِيَةٌ لِلْمَلَكَاتِ النَّفْسِيَّةِ لِتَحْقِيقِ "وَعْيٍ قُدْسِيٍّ".
رَابِعًا: مَقَامُ الْحَقِيقَةِ (وِحْدَةُ الطَّاعَةِ وَالذِّكْرِ)
الذِّكْرُ الْحَقُّ: يُنْسَبُ لِلْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى الْحَقِيقَةِ فَهُوَ مُطِيعٌ، وَمَنْ ذَكَرَهُ عَلَى الْغَفْلَةِ فَهُوَ عَاصٍ» (٥)؛ وَفِي هَذَا تَأْصِيلٌ لِكَوْنِ الذِّكْرِ حَالَةً حُضُورِيَّةً.
خَامِسًا: رُؤْيَةُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ (مَبْدَأُ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الِاسْمِ وَالْمُسَمَّى)
مَنْطِقُ الِاتِّصَالِ: يُشِيرُ السَّيِّدُ الطَّبَاطَبَائِيُّ (قُدِّسَ سِرُّهُ) إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ حِينَ يَبْدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَجْعَلُ فِعْلَهُ "مُوَسَّمًا" بِسِمَةِ اللَّهِ لِيَكُونَ فِعْلُهُ بَاقِيًا بِبَقَاءِ اللَّهِ (٦).
حَقِيقَةُ الْأَدَبِ: يُؤَكِّدُ الْعَارِفُ الْمَلَكِيُّ التَّبْرِيزِيُّ أَنَّ أَدَبَ الذِّكْرِ يَقْتَضِي مُطَابَقَةَ بَاطِنِ الذَّاكِرِ لِظَاهِرِهِ؛ لِيَكُونَ التَّعْظِيمُ سَارِيًا فِي كُلِّ ذَرَّاتِ الْوُجُودِ (٧).

خَامِساً: مَطْلَبُ الْفَوَائِدِ (ثَمَرَاتُ التَّعْظِيمِ فِي مَرَاقِي الْيَقِينِ)

تَتَرَتَّبُ عَلَى صَوْنِ الِاسْمِ الْمُقَدَّسِ وَذِكْرِهِ «عَلَى حَقٍّ» جُمْلَةٌ مِنَ الْفَوَائِدِ الْمَلَكُوتِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، مِنْهَا:
تَحْقِيقُ حَالَةِ "الْحَيَاءِ الْإِلَهِيِّ":
إِنَّ الِاعْتِيَادَ عَلَى تَعْظِيمِ الِاسْمِ يُورِثُ فِي النَّفْسِ هَيْبَةً مِنَ الْمُسَمَّى؛ فَمَنْ عَظَّمَ الِاسْمَ أَنْ يَنْطِقَ بِهِ فِي اللَّغْوِ، اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرَاهُ فِي مَوَاطِنِ الْمَعْصِيَةِ. فَيَكُونُ تَعْظِيمُ اللَّفْظِ حَارِساً لِلْجَوَارِحِ عَنِ الزَّلَلِ.
اسْتِمْزَاجُ حَلَاوَةِ الذِّكْرِ:
الذِّكْرُ الَّذِي يَكُونُ "عَلَى حَقٍّ" يَنْفُذُ مِنْ مَسَامِّ السَّمْعِ إِلَى شَغَافِ الْقَلْبِ، فَيَتَذَوَّقُ السَّالِكُ حَلَاوَةَ الِاتِّصَالِ. أَمَّا الذِّكْرُ الْغَافِلُ الَّذِي لَا تَعْظِيمَ فِيهِ، فَإِنَّهُ يَبْقَى عَلَى حَوَافِ اللِّسَانِ فَلَا يُورِثُ رِيّاً وَلَا طُمَأْنِينَةً.
نُورَانِيَّةُ الْكَلَامِ وَنَفَاذُ الْقَوْلِ:
مَنْ حَفِظَ اسْمَ اللَّهِ عَنِ الِابْتِذَالِ، جَعَلَ اللَّهُ فِي كَلَامِهِ بَرَكَةً وَنُوراً؛ فَاللِّسَانُ الَّذِي لَا يَنْطِقُ بِالْمُقَدَّسِ إِلَّا بِحَقِّهِ، يُصْبِحُ لِسَانَ صِدْقٍ، وَتَكُونُ لِكَلِمَاتِهِ مَهَابَةٌ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، لِأَنَّهُ اسْتَمَدَّ وَقَارَهُ مِنْ وَقَارِ الِاسْمِ الَّذِي عَظَّمَهُ.
الْخُرُوجُ مِنْ دَائِرَةِ "الِادِّعَاءِ":
الْفَائِدَةُ الْجَوْهَرِيَّةُ هِيَ تَحْقِيقُ "الصِّدْقِ"؛ فَذِكْرُ اللَّهِ مَعَ مُخَالَفَةِ مَنْهَجِهِ هُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّنَاقُضِ. أَمَّا تَعْظِيمُ الِاسْمِ بِشَرْطِ الْحَقِّ، فَإِنَّهُ يَصْبَغُ الذَّاتَ بِصِبْغَةِ التَّوْحِيدِ الْعَمَلِيِّ، فَيَكُونُ الظَّاهِرُ عُنْوَاناً لِلْبَاطِنِ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ

يَنْتَهِي الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ «تَعْظِيمَ اسْمِ اللَّهِ» هُوَ مِيزَانُ الصِّدْقِ؛ مَنْ عَظَّمَ "الِاسْمَ" فِي نُطْقِهِ، حَفِظَ "الْحَقَّ" فِي خَلْقِهِ. وَبِهَذَا يَتَحَوَّلُ الذِّكْرُ مِنْ مُجَرَّدِ حَرَكَةٍ لِسَانِيَّةٍ إِلَى "انْصِهَارٍ وُجُودِيٍّ"، يَكُونُ فِيهِ الِاسْمُ هُوَ الْبَابُ، وَالْمُسَمَّى هُوَ الْوِجْهَةُ، وَالْحَقُّ هُوَ الْمَنْهَجُ الَّذِي لَا حِيدَةَ عَنْهُ.

الْمَصَادِرُ:

(١) سُورَةُ الرَّحْمَن، الْآيَةُ ٧٨.
(٢) سُورَةُ الْوَاقِعَة، الْآيَةُ ٩٦.
(٣) الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ١، ص ١١٤.
(٤) الْحُرُّ الْعَامِلِيُّ، وَسَائِلُ الشِّيعَةِ، ج ٣، ص ٢٦٩.
(٥) مِصْبَاحُ الشَّرِيعَةِ، ص ٨.
(٦) تَفْسِيرُ الْمِيزَانِ، ج ١، ص ١٤.
(٧) الْمُرَاقَبَاتُ، ص ١٨٣.

مِعْرَاجُ اليَقَظَةِ وَمَنْطِقُ الرَّحِيلِ: دِرَاسَةٌ فِي تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَاسْتِكْمَالِ الْقُوَّةِ النُّزُوعِيَّةِ

«وَأَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ»

أَوَّلاً: الْمَطْلَبُ الْبَاطِنِيُّ (الْمَوْتُ الْإِرَادِيُّ وَكَشْفُ الْحُجُبِ)

يَنْطَلِقُ هَذَا الْمَبْحَثُ مِنْ أَصَالَةِ الرُّوحِ وَتَشَوُّقِهَا إِلَى بَارِئِهَا، حَيْثُ يُعَدُّ ذِكْرُ الْمَوْتِ رِيَاضَةً لِخَلْعِ رِبْقَةِ الطَّبِيعَةِ:

تَحْقِيقُ الْمَوْتِ الْإِرَادِيِّ: إِنَّ الْإِكْثَارَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ هُوَ سَعْيٌ لِتَحْقِيقِ مَقَامِ "الْإِمَاتَةِ"، وَهِيَ إِمَاتَةُ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ لِتَحْيَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. بَاطِنِيّاً، يَعْنِي ذَلِكَ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ عَنْ حُبِّ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ عَنِ الدُّنْيَا، فَيَصِيرَ "مُتَجَرِّداً" عَنْ عَلَائِقِ الْمَادَّةِ، مُتَّصِلاً بِعَالَمِ الْقُدْسِ وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي هَيْكَلِ الْبَدَنِ.

كَشْفُ الْغِطَاءِ وَشُهُودُ الْيَقِينِ: ذِكْرُ «مَا بَعْدَ الْمَوْتِ» يُفَعِّلُ عَيْنَ الْبَصِيرَةِ. فَإِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا فِي عُرْفِ الْحِكْمَةِ نَوْماً، فَإِنَّ الْمَوْتَ يَقَظَةٌ. الذِّكْرُ الْمُسْتَمِرُّ يَخْرِقُ الْحُجُبَ الظُّلْمَانِيَّةَ لِيَشْهَدَ السَّالِكُ حَقِيقَةَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ فِي طَوَايَا نَفْسِهِ، مِمَّا يَرْفَعُهُ مِنْ "عِلْمِ الْيَقِينِ" إِلَى "عَيْنِ الْيَقِينِ".

التَّجَرُّدُ عَنِ الْأَغْيَارِ: يَعْمَلُ ذِكْرُ الْمَوْتِ كَمُطَهِّرٍ لِلْقَلْبِ مِنْ رَيْنِ التَّعَلُّقِ بِالْمُمْكِنَاتِ. فَالرُّوحُ الَّتِي تَعْلَمُ حَتْمِيَّةَ الرَّحِيلِ تَنْقَطِعُ عَنِ "الْفَانِي" لِتَتَّصِلَ بِـ "الْبَاقِي"، فَيَصِيرُ ذِكْرُ الْمَوْتِ لَدَيْهَا بَاباً لِلْأُنْسِ بِاللَّهِ وَلَيْسَ وَحْشَةً مِنَ الْفَنَاءِ.

ثَانِيّاً: الْمَطْلَبُ الْأَخْلَاقِيُّ (تَقْوِيمُ الْمَلَكَاتِ وَاسْتِكْمَالُ النَّفْسِ)

يُعَدُّ ذِكْرُ الْمَوْتِ فِي هَذَا الْمَقَامِ هُوَ "الْمُؤَدِّبَ الْأَكْبَرَ" لِلْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ، وَإِلَيْكَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ:

تَهْذِيبُ الْقُوَّتَيْنِ الشَّهْوِيَّةِ وَالْغَضَبِيَّةِ: إِنَّ اسْتِحْضَارَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ يَكْسِرُ شِرَّةَ الشَّهْوَةِ وَيُطْفِئُ نَارَ الْغَضَبِ. فَالَّذِي يَرَى نِهَايَتَهُ تُرَاباً، تَنْكَسِرُ فِي نَفْسِهِ مَلَكَةُ "الْكِبْرِ" وَتَحِلُّ مَحَلَّهَا مَلَكَةُ "التَّوَاضُعِ". وَمَنْ عَلِمَ قِصَرَ الْمَسَافَةِ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالرَّحِيلِ، عَزَفَتْ نَفْسُهُ عَنْ "الْحِرْصِ" وَ "الطَّمَعِ"، وَاسْتَبْدَلَهُمَا بِـ "الْقَنَاعَةِ" وَ "الزُّهْدِ الْحَقِيقِيِّ".

الْوَرَعُ عَنِ الْمَحَارِمِ: يُحَوِّلُ ذِكْرُ الْمَوْتِ الْخُلُقَ مِنْ حَالٍ عَرَضِيٍّ إِلَى مَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ؛ فَالْمُسْتَعِدُّ لِلْحِسَابِ يَتَحَرَّى الدِّقَّةَ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ. هُنَا يَصِيرُ الذِّكْرُ "رَقِيباً بَاطِنِيّاً" يَمْنَعُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ، خَوْفاً مِنَ ارْتِهَانِ النَّفْسِ بِتَبِعَاتِ الْخَلْقِ.

تَصْحِيحُ الْقُوَّةِ النُّزُوعِيَّةِ (تَمَنِّي الْمَوْتِ وَالشَّرْطِ الْوَثِيقِ): يَرْفُضُ الْإِمَامُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَنْ يَكُونَ تَمَنِّي الْمَوْتِ نَاتِجاً عَنِ "الْجَزَعِ" أَوْ "قِلَّةِ الصَّبْرِ"، لِأَنَّ هَذِهِ رَذَائِلُ أَخْلَاقِيَّةٌ. بَلْ يَشْتَرِطُ "الشَّرْطَ الْوَثِيقَ" وَهُوَ: انْقِطَاعُ الْأَمَلِ مِنَ التَّزَوُّدِ، أَوْ خَوْفُ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ، أَوْ الشَّوْقُ الْمَحْضُ لِلِقَاءِ الْمَحْبُوبِ بَعْدَ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ. هَذَا الضَّابِطُ يَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ صَابِراً عَلَى بَلَاءِ الدُّنْيَا، مُجْتَهِداً فِي عِمَارَتِهَا بِالصَّالِحَاتِ، لَا يَطْلُبُ الِانْصِرَافَ إِلَّا وَذِمَّتُهُ بَرِيئَةٌ.

مَلَكَةُ الِاسْتِعْدَادِ الدَّائِمِ: يُثْمِرُ هَذَا الذِّكْرُ خُلُقَ "الْيَقَظَةِ"، فَلَا تَمُرُّ لَحْظَةٌ إِلَّا وَالنَّفْسُ فِي حَالَةِ "مُحَاسَبَةٍ" وَ "مُرَاقَبَةٍ". هَذِهِ الرِّيَاضَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَعِيشُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، مِمَّا يُحَقِّقُ لَهُ "الِاعْتِدَالَ" فِي كُلِّ شُؤُونِهِ.

ثَالِثاً: الْمَطْلَبُ الْعَقْلِيُّ (حِكْمَةُ الْفَنَاءِ وَالِاتِّصَالِ)

بُرْهَانُ الِافْتِقَارِ: يَرَى الْعَقْلُ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مَادِّيٍّ هُوَ "مُمْكِنٌ" يَقْبَلُ الْفَنَاءَ. إِكْثَارُ ذِكْرِ الْمَوْتِ هُوَ اعْتِرَافٌ بِيَقِينِ هَذَا الِافْتِقَارِ، لِيَهْرُبَ الْعَقْلُ مِنْ سَلْطَةِ "الْوَهْمِ" الَّذِي يُصَوِّرُ لَهُ الْبَقَاءَ فِي دَارِ الزَّوَالِ.
غَائِيَّةُ الْحَرَكَةِ الْوُجُودِيَّةِ: الْمَوْتُ فِي الْحِكْمَةِ الْمُتَعَالِيَةِ هُوَ انْتِقَالٌ مِنْ نَشْأَةٍ دَنِيَّةٍ إِلَى نَشْأَةٍ عُلْيَا. الذِّكْرُ هُنَا هُوَ اسْتِشْعَارٌ لِحَرَكَةِ النَّفْسِ نَحْوَ كَمَالِهَا الْأَخِيرِ، فَالْمَوْتُ لَيْسَ انْعِدَاماً، بَلْ هُوَ "تَحْصِيلُ الصُّورَةِ الْمُجَرَّدَةِ" الَّتِي بَنَاهَا الْإِنْسَانُ بِأَعْمَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ.

رَابِعاً: الْمَطْلَبُ الْبَيَانِيُّ (بَلَاغَةُ الْإِيجَازِ وَالتَّأْكِيدِ)

صِيغَةُ الْأَمْرِ (أَكْثِرْ): تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْغَفْلَةَ عَنِ الْمَوْتِ هِيَ أَصْلُ كُلِّ رَذِيلَةٍ، وَأَنَّ الذِّكْرَ الْمُسْتَمِرَّ هُوَ الْحِصْنُ الْحَصِينُ لِلنَّفْسِ.
الِاحْتِرَازُ (إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ): هُوَ إِيجَازٌ بَلِيغٌ يَمْنَعُ تَمَنِّي الْمَوْتِ النَّاتِجِ عَنْ طَيْشِ النَّفْسِ أَوْ ضَعْفِهَا، وَيَرْبِطُ الرَّحِيلَ بِالْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ.

خَامِساً: مَطْلَبُ الْفَوَائِدِ (ثَمَرَاتُ التَّعْظِيمِ فِي مَرَاقِي الْيَقِينِ)

تَتَرَتَّبُ عَلَى صَوْنِ الِاسْمِ الْمُقَدَّسِ وَذِكْرِهِ «عَلَى حَقٍّ» جُمْلَةٌ مِنَ الْفَوَائِدِ الْمَلَكُوتِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَنْعَكِسُ عَلَى كِيَانِ السَّالِكِ:
تَحْقِيقُ حَالَةِ «الْحَيَاءِ الْإِلَهِيِّ»: حَيْثُ يُورِثُ تَعْظِيمُ الِاسْمِ فِي النَّفْسِ هَيْبَةً مِنَ الْمُسَمَّى، فَيَكُونُ تَعْظِيمُ اللَّفْظِ حَارِساً لِلْجَوَارِحِ عَنِ الزَّلَلِ وَالْمَعْصِيَةِ، إِذْ يَسْتَحِي السَّالِكُ أَنْ يَذْكُرَ عَظَمَةَ الِاسْمِ ثُمَّ يُخَالِفَ أَمْرَ صَاحِبِهِ.
اسْتِمْزَاجُ حَلَاوَةِ الذِّكْرِ: فَالذِّكْرُ الَّذِي يَكُونُ «عَلَى حَقٍّ» يَنْفُذُ مِنْ مَسَامِّ السَّمْعِ إِلَى شَغَافِ الْقَلْبِ، فَيَتَذَوَّقُ السَّالِكُ طُمَأْنِينَةَ الِاتِّصَالِ الَّتِي يُحْرَمُ مِنْهَا مَنْ كَانَ ذِكْرُهُ لَقْلَقَةً لِسَانِيَّةً أَوْ غَفْلَةً قَلْبِيَّةً.
نُورَانِيَّةُ الْكَلَامِ وَنَفَاذُ الْقَوْلِ: مَنْ حَفِظَ اسْمَ اللَّهِ عَنِ الِابْتِذَالِ فِي مَوَاطِنِ اللَّغْوِ، جَعَلَ اللَّهُ فِي كَلَامِهِ هَيْبَةً وَبَرَكَةً؛ لِأَنَّهُ اسْتَمَدَّ وَقَارَهُ مِنْ وَقَارِ الِاسْمِ الَّذِي عَظَّمَهُ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ مَسْمُوعاً وَأَثَرُهُ مَلْمُوساً.
تَحْقِيقُ الصِّدْقِ الْوُجُودِيِّ: بِالْخُرُوجِ مِنْ دَائِرَةِ الِادِّعَاءِ إِلَى مَقَامِ التَّوْحِيدِ الْعَمَلِيِّ؛ حَيْثُ يُصْبِحُ الظَّاهِرُ اللِّسَانِيُّ عُنْوَاناً صَادِقاً لِلْبَاطِنِ الْقَلْبِيِّ، فَلَا يَنْطِقُ بِالْحَقِّ إِلَّا مَنْ كَانَ قَائِمًا بِالْحَقِّ.خَاتِمَةُ الْبَحْثِ (حَقِيقَةُ الْفَوْزِ)

سَادِساً: الشَّوَاهِدُ النَّقْلِيَّةُ (مِنْ مِشْكَاةِ الْقُرْآنِ وَمَعِينِ الْأَثَرِ)

تَتَضَافَرُ الْآيَاتُ وَالرِّوَايَاتُ لِتَرْسِيخِ نَظَرِيَّةِ "الْيَقَظَةِ بِذِكْرِ الْمَوْتِ"، بِوَصْفِهِ انْتِقَالاً مِنَ الظِّلِّ إِلَى الْأَصْلِ، وَمِنَ النَّوْمِ إِلَى الِانْتِبَاهِ:

١. مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (سُنَّةُ الْفَنَاءِ وَحَقِيقَةُ الْبَقَاءِ)
الْمُبَاشَرَةُ الْوُجُودِيَّةُ: يَقُولُ تَعَالَى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» (١)؛ وَالذَّوْقُ هُنَا لَيْسَ فَنَاءً مَحْضاً، بَلْ هُوَ اتِّصَالٌ مُبَاشِرٌ بِيَقِينِ الْآخِرَةِ، مِمَّا يَسْتَوْجِبُ (دَوَامَ الذِّكْرِ) لِتَهْوِينِ هَوْلِ الِانْخِلَاعِ عَنِ الْمَادَّةِ.
الْمَطْلَبُ الْأَخْلَاقِيُّ الْأَسْمَى: يَقُولُ تَعَالَى: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ» (٢)؛ حَيْثُ جَعَلَ اللَّهُ النَّظَرَ فِي (مَا بَعْدَ الْمَوْتِ) رُكْناً جَوْهَرِيّاً فِي مَاهِيَّةِ التَّقْوَى، فَالْمَوْتُ هُنَا هُوَ "الْمِرْآةُ" الَّتِي تَنْعَكِسُ عَلَيْهَا حَقِيقَةُ الْأَعْمَالِ.

بُرْهَانُ الصِّدْقِ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» (٣)؛ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ تَمَنِّي الرَّحِيلِ لَا يَكُونُ كَمَالاً إِلَّا (بِشَرْطٍ وَثِيقٍ) مِنَ الْيَقِينِ وَالِاسْتِقَامَةِ، لَا جَزَعاً مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا.

٢. مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمُقَدَّسَةِ (رِيَاضَةُ الذِّكْرِ وَمَقَامُ الشَّوْقِ)

كَسْرُ هَيْمَنَةِ النَّاسُوتِ: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ» (٤)؛ وَالْهَدْمُ هُنَا لَيْسَ لِلَّذَّةِ بِمَا هِيَ لَذَّةٌ، بَلْ لِلِانْقِطَاعِ إِلَى الْعَرَضِ الزَّائِلِ، فَالْمَوْتُ هُوَ الْمُوقِظُ لِلْعَقْلِ مِنَ الِانْغِمَاسِ فِي الْمَادَّةِ.

التَّجْرِيدُ الْبَاطِنِيُّ: عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «ذِكْرُ الْمَوْتِ يُمِيتُ الشَّهَوَاتِ فِي النَّفْسِ، وَيَقْلَعُ مَنَابِتَ الْغَفْلَةِ» (٥)؛ وَهَذَا الشَّاهِدُ يُفَصِّلُ "الْمَطْلَبَ الْبَاطِنِيَّ" فِي تَطْهِيرِ الْقَلْبِ مِنَ الْحِرْصِ وَتَرْقِيقِ الطَّبْعِ لِقَبُولِ مَوَاعِدِ اللَّهِ.

الْمَوْتُ كَضَرُورَةٍ لِلْكَمَالِ: فِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ عَنِ الْإِمَامِ السَّجَّادِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «فَإِذَا كَانَ عُمْرِي مَرْعًى لِلشَّيْطَانِ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ» (٦)؛ وَهَذَا هُوَ "الشَّرْطُ الْوَثِيقُ" الَّذِي يَرْبِطُ تَمَنِّي الْفَنَاءِ بِمَصْلَحَةِ سَلَامَةِ الْيَقِينِ وَالْفِرَارِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ

يَخْلُصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الرُّؤْيَةَ الْعَلَوِيَّةَ لِلْمَوْتِ تَنْقُلُهُ مِنْ كَوْنِهِ "مُصِيبَةً" إِلَى كَوْنِهِ "مُصَفِّيَةً" لِلنَّفْسِ. إِنَّ الْإِكْثَارَ مِنْ ذِكْرِهِ مَعَ الْتِزَامِ الْأَخْلَاقِ وَالْقِيَامِ بِشُرُوطِ الِاسْتِعْدَادِ، يَجْعَلُ مِنَ الرَّحِيلِ انْتِصَاراً لِلرُّوحِ عَلَى الْمَادَّةِ، وَإِشْرَاقاً لِلنُّورِ بَعْدَ ظُلْمَةِ الطَّبِيعَةِ.

الْمَصَادِرُ:

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَان، الْآيَةُ ١٨٥.

(٢) سُورَةُ الْحَشْر، الْآيَةُ ١٨.

(٣) سُورَةُ الْبَقَرَة، الْآيَةُ ٩٤.

(٤) الشَّيْخُ الطُّوسِيُّ، الْأَمَالِي، ص ٤٣٨.

(٥) مِصْبَاحُ الشَّرِيعَةِ، ص ١٧١.

(٦) الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ، الدُّعَاءُ ٢٠ (مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ).

مِيزَانُ الِاسْتِقَامَةِ وَتَوْحِيدُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ: دِرَاسَةٌ فِي تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَمَعَايِيرِ الْعَمَلِ

«وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ وَيُكْرَهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوْ اعْتَذَرَ مِنْهُ»
يَرْسُمُ هَذَا الْبَيَانُ الْعَلَوِيُّ مَعَالِمَ "الشَّخْصِيَّةِ الْمُوَحِّدَةِ" الَّتِي لَا انْفِصَامَ فِيهَا بَيْنَ سِرٍّ وَعَلَنٍ، أَوْ بَيْنَ حَقِّ الذَّاتِ وَحَقِّ الْآخَرِ؛ حَيْثُ جَعَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مِنْ "الْحَيَاءِ الْبَاطِنِيِّ" وَ "الْإِنْصَافِ الْخُلُقِيِّ" مِعْيَاراً لِصِحَّةِ الْعَمَلِ. إِنَّ التَّحْذِيرَ مِنْ هَذِهِ الْمَحَاذِيرِ الثَّلَاثَةِ لَيْسَ مُجَرَّدَ نَهْيٍ عَنْ قَبِيحٍ، بَلْ هُوَ دَعْوَةٌ لِتَحْقِيقِ "الصِّدْقِ الْمُطْلَقِ" مَعَ النَّفْسِ وَالْخَلْقِ وَالْخَالِقِ.

أَوَّلاً: الْمَطْلَبُ الْأَخْلَاقِيُّ (رِيَاضَةُ الْمَلَكَاتِ وَتَهْذِيبُ النُّزُوعِ)

يُؤَصِّلُ هَذَا الْمَبْحَثُ لِقَاعِدَةِ "الْعَدْلِ الْخُلُقِيِّ" الَّتِي تَقُومُ عَلَى تَطْهِيرِ الْقُوَّةِ الشَّهْوِيَّةِ وَالْغَضَبِيَّةِ مِنْ رَذَائِلِ الْأَنَانِيَّةِ وَالِازْدِوَاجِيَّةِ:
تَوْحِيدُ مِعْيَارِ الْإِنْصَافِ: إِنَّ رِضَا النَّفْسِ بِمَا تَكْرَهُهُ لِلْآخَرِينَ هُوَ "تَطْفِيفٌ خُلُقِيٌّ" يَهْدِمُ رَوَابِطَ الْإِنْسَانِيَّةِ. يَقْتَضِي هَذَا الْمَبْدَأُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ "حَسِيباً" عَلَى مَيْلِهِ الذَّاتِيِّ؛ فَالْفَضِيلَةُ هِيَ مَا اسْتَوَى نَفْعُهَا أَوْ قَبُولُهَا فِي دَائِرَةِ "الْأَنَا" وَ"الْآخَرِ". هَذِهِ الرِّيَاضَةُ تُنْتِجُ مَلَكَةَ "السَّخَاءِ النَّفْسِيِّ"، حَيْثُ يَتَمَنَّى الْمَرْءُ لِلْعُمُومِ مَا يَجْلِبُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ صَلَاحٍ.
الْحَيَاءُ كَمَلَكَةٍ عَاصِمَةٍ: الِاسْتِحْيَاءُ فِي الْعَلَانِيَةِ مَعَ الْجُرْأَةِ فِي السِّرِّ هُوَ "تَمَزُّقٌ فِي الشَّخْصِيَّةِ". يَرَى الْمَنْهَجُ الْأَخْلَاقِيُّ أَنَّ "الْحَيَاءَ" لَيْسَ خَجَلًا مِنَ النَّاسِ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ "انْقِبَاضُ النَّفْسِ" عَنِ الْقَبِيحِ لِذَاتِهِ. فَإِذَا صَارَ الْحَيَاءُ مَلَكَةً رَاسِخَةً، اسْتَحْيَا الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ أَوَّلاً، فَيَصِيرُ بَاطِنُهُ كَظَاهِرِهِ فِي النَّزَاهَةِ.
صَوْنُ الْمُرُوءَةِ مِنَ الِانْكِسَارِ: إِنَّ فِعْلَ مَا يُوجِبُ "الِاعْتِذَارَ" هُوَ إِذْلَالٌ لِلنَّفْسِ؛ وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِصَوْنِ عِزَّتِهِ. تُبَيِّنُ الْأَخْلَاقُ الْعَلَوِيَّةُ ضَرُورَةَ الْعَمَلِ "الْبُرْهَانِيِّ" الَّذِي يَمْلِكُ صَاحِبُهُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمُجَاهَرَةِ بِهِ بِثَبَاتٍ، مِمَّا يَحْفَظُ لَهُ وَقَارَهُ وَصِدْقَهُ.

ثَانِيّاً: الْمَطْلَبُ السُّلوكيُّ (شُهُودُ الْحَقِّ وَصَفَاءِ السَّرِيرَةِ)

يَنْتَقِلُ الْبَحْثُ مِنْ ظَاهِرِ الْأَدَبِ إِلَى بَاطِنِ الْقُرْبِ، حَيْثُ يَتَحَوَّلُ "الْحَذَرُ" إِلَى مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ السُّلوكِ الرُّوحِيِّ:
شُهُودُ الْقَيُّومِيَّةِ فِي الْخَلَوَاتِ: عِنْدَ أَهْلِ السُّلوكِ، لَا "سِرَّ" يَمْتَنِعُ عَلَى بَصَرِ الْحَقِّ. يَقُودُ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى أَنَّ الْحَذَرَ مِنَ السِّرِّ الْمَعِيبِ هُوَ عَيْنُ "الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ". فَالْقَائِمُ بِسُلُوكِهِ الَّذِي يَشْهَدُ حُضُورَ الْمَحْبُوبِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ يَسْتَوِي عِنْدَهُ النَّاسُ وَالْجِدَارُ، فَلَا يَفْعَلُ فِي خَلْوَتِهِ إِلَّا مَا يَلِيقُ بِحَضْرَةِ قُدْسِهِ.
التَّجَرُّدُ عَنِ الِازْدِوَاجِ الْوُجُودِيِّ: السِّرُّ الَّذِي يُسْتَحَى مِنْهُ هُوَ "حِجَابٌ" بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ. يَرَى السَّالِكُ أَنَّ "الْعَمَلَ الصَّالِحَ" هُوَ مَا اتَّصَلَ بِالنُّورِ، وَالنُّورُ لَا يَخْشَى الظُّهُورَ. فَإِذَا طَهُرَتِ السَّرِيرَةُ، صَارَ السِّرُّ "جَلِيّاً" لِلَّهِ، فَتَفِيضُ السَّكِينَةُ عَلَى الْجَوَارِحِ، وَيَزُولُ التَّمَزُّقُ بَيْنَ مَا يُخْفِيهِ وَمَا يُبْدِيهِ.
مَقَامُ الصِّدْقِ الْمُطْلَقِ: الصِّدْقُ فِي مَنْهَجِ السُّلوكِ هُوَ "مُطَابَقَةُ السِّرِّ لِلْعَلَنِ". هَذِهِ الشَّفَافِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَرْفَعُ السَّالِكَ إِلَى مَقَامِ الْمُخْلَصِينَ، حَيْثُ لَا يَمْلِكُ فِي طَوَايَاهُ مَا يُنْكِرُهُ، فَيَعِيشُ حُرّاً مِنْ قَيْدِ الْخَوْفِ مِنَ انْكِشَافِ الْعُيُوبِ.

ثَالِثاً: الْمَطْلَبُ الْفَلْسَفِيُّ (حِكْمَةُ التَّنَازُهِ وَوِحْدَةُ الْمِعْيَارِ الْوُجُودِيِّ)

يُحَلِّلُ الْعَقْلُ الْبُرْهَانِيُّ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ كَنِظَامٍ وُجُودِيٍّ يَحْكُمُ حَرَكَةَ الْإِنْسَانِ نَحْوَ الْكَمَالِ:
بُرْهَانُ التَّمَاثُلِ وَالْعَدْلِ: يَرَى الْعَقْلُ أَنَّ "الْحُسْنَ" وَ "الْقُبْحَ" ذَاتِيَّانِ فِي الْأَفْعَالِ. فَإِذَا كَانَ الْعَمَلُ قَبِيحاً لِلْعَامَّةِ، فَهُوَ قَبِيحٌ فِي ذَاتِهِ، وَرِضَا النَّفْسِ بِهِ هُوَ "وَهْمٌ" وَانْحِرَافٌ عَنِ الْمُدْرَكَاتِ الْعَقْلِيَّةِ السَّلِيمَةِ. الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي تَنْزِيهَ الْفِعْلِ لِيَتَّسِقَ مَعَ الْقَانُونِ الْكُلِّيِّ.
وِحْدَةُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ: فَلْسَفِيّاً، الْإِنْسَانُ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ؛ وَالتَّفْرِقَةُ بَيْنَ السِّرِّ وَالْعَلَنِ هِيَ "تَجْزِئَةٌ" لِلْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ تُؤَدِّي إِلَى الضَّعْفِ. الِاتِّسَاقُ بَيْنَ مَا يُضْمِرُهُ الْمَرْءُ وَمَا يُظْهِرُهُ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ لَهُ "الْقُوَّةَ الْوُجُودِيَّةَ" وَالصَّلَابَةَ فِي مَقَامِ الْفِعْلِ.

رَابِعًا: شَوَاهِدُ التَّصْدِيقِ وَشَرْحُهَا (بُرْهَانُ التَّنْزِيلِ وَالْأَثَرِ الرِّوَائِيِّ)

تَتَجَلَّى هَذِهِ الشَّوَاهِدُ كَمَوازِينَ قُدْسِيَّةٍ تُحَاكِمُ "الْأَنَانِيَّةَ النَّفْسِيَّةَ" وَتَدْعُو إِلَى إِقَامَةِ الْقِسْطِ فِي مَمْلَكَةِ الرُّوحِ، وَمِنْ ذَلِكَ:
١. بُرْهَانُ التَّنْزِيلِ (فَلْسَفَةُ الْمِيزَانِ وَالرَّقَابَةِ)
قُبْحُ اخْتِلَالِ الْمِعْيَارِ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» (١)؛ يُشِيرُ النَّصُّ إِلَى فَسَادٍ فِي (الْمَنْطِقِ الْوُجُودِيِّ) لَدَى الْإِنْسَانِ؛ حَيْثُ يَتَضَخَّمُ مَفْهُومُ "الْحَقِّ الذَّاتِيِّ" عِنْدَ الْأَخْذِ، وَيَضْمَحِلُّ مَفْهُومُ "الْحَقِّ الْغَيْرِيِّ" عِنْدَ الْعَطَاءِ، وَهَذَا التَّطْفِيفُ هُوَ أَصْلُ كُلِّ جَوْرٍ حَذَّرَ مِنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي مِيزَانِ الْإِنْصَافِ.
الِازْدِوَاجِيَّةُ وَالسُّقُوطُ الْقِيَمِيُّ: يَقُولُ سُبْحَانَهُ: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ» (٢)؛ يُقَرِّرُ هَذَا الْبُرْهَانُ زَيْفَ (الْعَلَانِيَّةِ) حِينَ تَنْفَصِلُ عَنِ (السِّرِّ)، حَيْثُ يُعَظِّمُ الْخَلْقُ وَيُسْتَهَانُ بِالْخَالِقِ، وَهِيَ الْحَالَةُ الَّتِي تَهْدِمُ جَوْهَرَ الصِّدْقِ الَّذِي رَسَمَهُ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي الِاسْتِقَامَةِ.
٢. شَوَاهِدُ التَّصْدِيقِ الرِّوَائِيَّةِ (تَوْحِيدُ الْمِعْيَارِ الْإِيمَانِيِّ)
رَابِطَةُ الْإِيمَانِ وَالْغَيْرِيَّةِ: جَاءَ فِي الْخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» (٣)؛ فَالْإِيمَانُ هُنَا لَيْسَ طَقْسًا عِبَادِيًّا، بَلْ هُوَ (خُرُوجٌ مِنَ الذَّاتِ) لِلِاتِّحَادِ بِمَصْلَحَةِ الْآخَرِينَ، فَكُلُّ مَا لَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ مِن قَبِيحٍ، يَمْنَعُكَ الْإِيمَانُ مِنْ تَوْجِيهِهِ لِلْعَامَّةِ كَمَا أَوْصَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ).
الْمُجَانَسَةُ الْخُلُقِيَّةُ: عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ» (٤)؛ وَهِيَ تَرْجَمَةٌ عَمَلِيَّةٌ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِحْوَرًا لِلْعَدْلِ لَا مَرْكَزًا لِلْأَثَرَةِ.

خَامِساً: فَوَائِدُ الْحِكْمَةِ فِي التَّنَاهِي عَنِ الْمَحَاذِيرِ

فَائِدَةُ السَّكِينَةِ: التَّحَرُّرُ مِنْ قَلَقِ الْفَضِيحَةِ وَخَوْفِ الِانْكِشَافِ، لِأَنَّ السِّرَّ مَطْوِيٌّ عَلَى صَلَاحٍ.
فَائِدَةُ الْعِزَّةِ: الِاسْتِغْنَاءُ عَنْ ذُلِّ الِاعْتِذَارِ لِلْخَلْقِ، لِأَنَّ الْفِعْلَ صَدَرَ عَنْ حُجَّةٍ وَبَيِّنَةٍ.
فَائِدَةُ الِاسْتِقَامَةِ: تَحْوِيلُ السُّلوكِ إِلَى حَرَكَةٍ نُورَانِيَّةٍ وَاحِدَةٍ نَحْوَ الْبَارِئِ بِدُونِ عَرَضِ الِالْتِفَاتِ لِلْغَيْرِ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ (الاِتِّسَاقُ الْوُجُودِيُّ الشَّامِلُ)

يَنْتَهِي الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ الْعَلَوِيَّةَ هِيَ "هَنْدَسَةٌ لِلرُّوحِ" لِتَكُونَ صَمَدِيَّةً فِي مَوَاقِفِهَا، طَاهِرَةً فِي سَرِيرَتِهَا. إِنَّ الْتِزَامَ هَذَا الْمِيزَانِ يُخْرِجُ السَّالِكَ مِنْ ظُلُمَاتِ التَّصَنُّعِ إِلَى ضِيَاءِ الْحَقِيقَةِ، لِيَلْقَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَوَجْهٍ مَسْفُورٍ.

الْمَصَادِرُ:

(١) سُورَةُ الْمُطَفِّفِين، الْآيَاتُ ١-٣.

(٢) سُورَةُ النِّسَاء، الْآيَةُ ١٠٨.

(٣) الشَّيْخُ الطُّوسِيُّ، الْأَمَالِي، ص ٦٤٠.

(٤) الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهُ، ج ٤، ص ٣٨٩.

صِيَانَةُ الْجَوْهَرِ وَحِكْمَةُ الِاتِّقَاءِ: دِرَاسَةٌ فِي حِفْظِ الْعِرْضِ مِنَ الِانْتِهَاكِ

إِنَّ الْوَصِيَّةَ الْعَلَوِيَّةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَوْجِيهَاتٍ تَرْبَوِيَّةٍ عَابِرَةٍ، بَلْ هِيَ مَنْظُومَةٌ "وُجُودِيَّةٌ" تَرْمِي إِلَى صِيَانَةِ الْإِنْسَانِ فِي جَوْهَرِهِ وَمَظْهَرِهِ. وَتَأْتِي هَذِهِ الْقَاعِدَةُ: «وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبَالِ الْقَوْلِ» لِتَضَعَ السَّالِكَ أَمَامَ مَسْؤُولِيَّةٍ كُبْرَى؛ وَهِيَ أَنَّ "الْكَرَامَةَ" حِمًى مُقَدَّسٌ يَجِبُ أَنْ يُحَاطَ بِسِيَاجٍ مِنَ الْحَذَرِ وَالرَّزَانَةِ، لِكَيْ لَا تَكُونَ الذَّاتُ الْمُؤْمِنَةُ مَرْمًى لِظُنُونِ الْخَلْقِ وَأَوْهَامِهِمْ. وَفِيمَا يَلِي تَفْصِيلُ هَذِهِ الْحِكْمَةِ:

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: الْمَنْهَجُ الْأَخْلَاقِيُّ (رِيَاضَةُ التَّنَزُّهِ وَصَوْنُ الْوَقَارِ)

يُرَكِّزُ هَذَا الْمَطْلَبُ عَلَى مَلَكَةِ "الْحِصَانَةِ الْخُلُقِيَّةِ" الَّتِي تَمْنَعُ تَهَاوِي الشَّخْصِيَّةِ فِي مُسْتَنْقَعَاتِ الشُّبْهَةِ:
تَهْذِيبُ مَقَامِ الظُّهُورِ: إِنَّ تَعْرِيضَ الْعِرْضِ لِلطَّعْنِ هُوَ تَفْرِيطٌ فِي نِعْمَةِ "السَّتْرِ الْإِلَهِيِّ". فَالْإِنْسَانُ الْمُهَذَّبُ هُوَ الَّذِي يَدْرُسُ فِعْلَهُ قَبْلَ صُدُورِهِ؛ فَإِذَا كَانَ الْفِعْلُ حَقّاً فِي نَفْسِهِ لَكِنَّهُ يُوهِمُ بَاطِلاً عِنْدَ النَّاسِ، وَجَبَ الِاحْتِرَازُ عَنْهُ صَوْناً لِلْوَقَارِ. هَذِهِ الرِّيَاضَةُ تُنْتِجُ مَلَكَةَ "التَّثَبُّتِ"، حَيْثُ لَا يَنْسَاقُ الْمَرْءُ خَلْفَ رَغَبَاتِهِ دُونَ النَّظَرِ فِي عَوَاقِبِ سُمْعَتِهِ.
الْوَرَعُ عَنْ مَوَاقِفِ الرَّيْبِ: تَدْعُو الْأَخْلَاقُ الْعَلَوِيَّةُ إِلَى الِابْتِعَادِ عَنْ "مَوَاطِنِ التُّهْمَةِ"؛ لِأَنَّ الْعِرْضَ إِذَا تَهَتَّكَ سَتْرُهُ بِسَبَبِ سُوءِ اخْتِيَارِ الْمَرْءِ، صَعُبَ رَدُّ نِبَالِ الْقَوْلِ عَنْهُ. فَالْمُؤْمِنُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شَامَةً بَيْنَ النَّاسِ، لَا يُقَابَلُ إِلَّا بِالتَّعْظِيمِ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالِاحْتِيَاطِ الشَّدِيدِ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسَكَنَةٍ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الْمَنْهَجُ السُّلوكيُّ (تَجْرِيدُ الْقَصْدِ وَسَلَامَةُ الطَّرِيقِ)

يَنْتَقِلُ التَّحْلِيلُ إِلَى أَغْوَارِ السُّلوكِ الرُّوحِيِّ، حَيْثُ تُرْبَطُ صِيَانَةُ الْعِرْضِ بِصَفَاءِ الْقَلْبِ وَتَوَجُّهِهِ:
تَصْفِيَةُ السِّرِّ مِنَ الِانْشِغَالِ بِالْخَلْقِ: السَّالِكُ الَّذِي يَجْعَلُ عِرْضَهُ مَشَاعاً لِلْأَلْسِنَةِ بِيَدِهِ، يَحْكُمُ عَلَى قَلْبِهِ بِالشَّتَاتِ. فَعِوَضاً عَنْ شُهُودِ الْجَمَالِ الْإِلَهِيِّ، يَجِدُ نَفْسَهُ مُضْطَرّاً لِمُطَارَدَةِ السِّهَامِ وَدَفْعِ التُّهَمِ. لِذَا، كَانَ "صَوْنُ الْعِرْضِ" فِي مَنْهَجِ السُّلوكِ هُوَ وَسِيلَةٌ لِتَحْقِيقِ "الْخَلْوَةِ مَعَ اللَّهِ" بَيْنَ مَلَإِ النَّاسِ.
الِاسْتِتَارُ بِجَمَالِ الصِّدْقِ: مَنْ كَانَ فِي سُلُوكِهِ صَادِقاً، جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَهَابَةً تَمْنَعُ النُّبَالَ مِنْ دُخُولِ حِمَاهُ. السَّالِكُ يَرَى أَنَّ الْحَذَرَ هُنَا لَيْسَ خَوْفاً مِنَ النَّاسِ، بَلْ هُوَ "أَدَبٌ" مَعَ اللَّهِ لِكَيْلَا يَتَمَثَّلَ لِلنَّاسِ بِمَظْهَرٍ يَفْتِنُهُمْ فِي دِينِهِمْ أَوْ يَدْفَعُهُمْ لِلْغِيبَةِ، فَيَكُونُ سَبَباً فِي مَعْصِيَتِهِمْ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الْمَنْهَجُ الْفَلْسَفِيُّ (حِكْمَةُ الصِّيَانَةِ وَوُجُوبُ حِفْظِ الْقِيمَةِ)

يُشَرِّحُ الْعَقْلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ كَقَانُونٍ كُلِّيٍّ يَحْفَظُ لِلْإِنْسَانِ هُوِيَّتَهُ الِاعْتِبَارِيَّةَ وَالْوُجُودِيَّةَ:
بُرْهَانُ الِاتِّقَاءِ الْعَقْلِيُّ: فَلْسَفِيّاً، الْعِرْضُ هُوَ "الْوُجُودُ الثَّانِي" لِلْمَرْءِ فِي عَالَمِ التَّعَامُلِ. وَتَعْرِيضُ هَذَا الْوُجُودِ لِلنَّبْلِ هُوَ نَوْعٌ مِنَ "التَّلَاشِي" لِلْقِيمَةِ. الْحِكْمَةُ الْعَمَلِيَّةُ تَقْضِي بِأَنَّ مَنْ يَمْلِكُ جَوْهَراً ثَمِيناً لَا يَضَعُهُ فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ؛ كَذَلِكَ الْعِرْضُ، فَإِنَّ صِيَانَتَهُ عَقْلِيّاً هِيَ شَرْطٌ لِبَقَاءِ النُّفُوذِ وَالْفَاعِلِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ.
وِحْدَةُ الْكَرَامَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ: يَرَى الْعَقْلُ أَنَّ الِانْسِجَامَ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالصُّورَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ يُؤَدِّي إِلَى "الِاطْمِئْنَانِ الْوُجُودِيِّ". فَالْإِنْسَانُ الَّذِي يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَرْمًى لِلْقَوْلِ يَعِيشُ حَالَةً مِنَ "الِاضْطِرَابِ"، بَيْنَمَا الْحَكِيمُ هُوَ مَنْ يَحْفَظُ حُدُودَهُ لِيَبْقَى جَوْهَرُهُ مَصُوناً عَنْ كُلِّ كَدَرٍ.

رَابِعًا: شَوَاهِدُ التَّصْدِيقِ وَشَرْحُهَا (بُرْهَانُ التَّنْزِيلِ وَالْأَثَرِ الرِّوَائِيِّ)

تَتَجَلَّى هَذِهِ الشَّوَاهِدُ كَدَعَائِمَ وُجُودِيَّةٍ لِحِمَايَةِ "الْحَرِيمِ الْمَعْنَوِيِّ" لِلْإِنْسَانِ، وَمَنْعِ تَطَرُّقِ الظُّنُونِ إِلَى سَاحَةِ الْيَقِينِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

١. بُرْهَانُ التَّنْزِيلِ (الْمَنْعُ مِنَ اقْتِفَاءِ الظُّنُونِ)

جِنَايَةُ الْجَهْلِ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» (١)؛ يُحَذِّرُ الْقُرْآنُ مِنَ الارْتِهَانِ لِلْمَوْهُومِ؛ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يُكَمِّلُ هَذَا الْمَعْنَى بِإِيجَابِ (سَدِّ الذَّرَائِعِ)؛ فَكَمَا نُهِيَ النَّاسُ عَنِ اتِّبَاعِ الظَّنِّ، أُمِرَ الْمَرْءُ بِأَلَّا يَجْعَلَ نَفْسَهُ مَحَلًّا لِاقْتِفَاءِ الْعُقُولِ بِمَا يَشِينُ، صِيَانَةً لِعِرْضِهِ مِنَ التَّهَمُّمِ.

٢. شَوَاهِدُ التَّصْدِيقِ الرِّوَائِيَّةِ (هَنْدَسَةُ الِاحْتِرَازِ وَالْوَقَارِ)

وُجُوبُ الِاحْتِيَاطِ الْمَكَانِيِّ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «اتَّقُوا مَوَاقِفَ التُّهَمِ» (٢)؛ وَهُوَ نَصٌّ سُلُوكِيٌّ يَقْضِي بِتَحْرِيمِ التَّوَاجُدِ فِي الْأَطْرَافِ الْمُظْلِمَةِ مَعْنَوِيًّا؛ فَالْمُتَّقِي لَا يَقِفُ حَيْثُ يُشَارُ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِ الرَّيْبِ، لِكَيْلَا يَجْعَلَ جَوْهَرَهُ غَرَضًا لِنِبَالِ الْأَلْسِنَةِ.

فَلْسَفَةُ الْمَسْؤُولِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ: رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهْمَةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ» (٣)؛ يُبَيِّنُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَنَّ الْمَسْؤُولِيَّةَ تَقَعُ عَلَى (الْغَرَضِ) قَبْلَ (النَّابِلِ)؛ فَالَّذِي هَتَكَ سِتْرَ نَفْسِهِ بِفِعْلِهِ، قَدْ فَرَّطَ فِي حَقِّ الْكَرَامَةِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِيهِ.

الرَّزَانَةُ كَحِصْنٍ وُجُودِيٍّ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «الْمُؤْمِنُ حَلِيمٌ لَا يَجْهَلُ، وَإِنْ جُهِلَ عَلَيْهِ صَبَرَ...» (٤)؛ تُشِيرُ الرِّوَايَةُ إِلَى كَمَالِ الصُّورَةِ السُّلُوكِيَّةِ لِلْمُؤْمِنِ؛ حَيْثُ يَكُونُ فِعْلُهُ مَحْفُوفًا بِالْعَقْلِ، مِمَّا يَمْنَعُ تَرَدُّدَ سِهَامِ الطَّعْنِ فِي فِضَائِهِ الْمُقَدَّسِ.

خَامِساً: فَوَائِدُ الْحِكْمَةِ فِي التَّنَاهِي عَنِ الْمَحَاذِيرِ

فَائِدَةُ التَّحْصِينِ: بِنَاءُ جِدَارٍ مِنَ الثِّقَةِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمُجْتَمَعِ، مِمَّا يَجْعَلُ شَهَادَتَكَ وَقَوْلَكَ مَقْبُولاً.

فَائِدَةُ السَّلَامَةِ الرُّوحِيَّةِ: الِانْعِتَاقُ مِنْ "قَيْدِ الْمُدَافَعَةِ"؛ فَالَّذِي لَا يُطْعَنُ فِيهِ يَمْلِكُ طَاقَتَهُ كَامِلَةً لِلْبِنَاءِ وَالتَّرَقِّي.

فَائِدَةُ الِاسْتِقَامَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ: نَشْرُ ثَقَافَةِ "الِاحْتِرَامِ الْمُتَبَادَلِ"؛ فَمَنْ صَانَ عِرْضَهُ، أَجْبَرَ النَّاسَ عَلَى تَوْقِيرِ حُرُمَاتِهِ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ (حَصَانَةُ الْحَقِيقَةِ)

يَخْلُصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ قَوْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) هُوَ مِيثَاقٌ لِـ "السِّيَادَةِ الذَّاتِيَّةِ". فَالْمُؤْمِنُ لَيْسَ رِيشَةً فِي مَهَبِّ أَلْسِنَةِ السُّوءِ، بَلْ هُوَ جَبَلٌ رَاسِخٌ يَحْمِي قِمَّتَهُ بِالتَّقْوَى وَسُفُوحَهُ بِالْحَذَرِ. إِنَّ الِاعْتِصَامَ بِهَذِهِ الْحِكْمَةِ يَجْعَلُ السَّالِكَ حِصْناً مَنِيعاً، يَمْضِي نَحْوَ مَقْصَدِهِ بِثَبَاتٍ نُورَانِيٍّ، لَا تُعِيقُهُ نِبَالُ الْقَوْلِ وَلَا غُبَارُ الْأَوْهَامِ.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ الْإِسْرَاء، الْآيَةُ ٣٦.
(٢) الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٢، ص ٢٢١.
(٣) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، حِكْمَةُ ١٥٩.
(٤) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٧٥، ص ١٧٢.

مِيزَانُ الصِّدْقِ وَحِكْمَةُ التَّثَبُّتِ: دِرَاسَةٌ فِي رَصَانَةِ الْعَقْلِ وَتَقْوِيمِ النُّطْقِ

«وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِباً، وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا»
تُمَثِّلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ الْعَلَوِيَّةُ مِيزَانًا مَعْرِفِيًّا لِضَبْطِ "السُّيُولَةِ الْإِخْبَارِيَّةِ" بَيْنَ الْإِرْسَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ. إِنَّهَا دَعْوَةٌ لِبِنَاءِ "الْإِنْسَانِ النَّاقِدِ" الَّذِي لَا يَجْعَلُ لِسَانَهُ مَمَرًّا لِكُلِّ دَخِيلٍ، وَلَا عَقْلَهُ حِصْنًا مُنْغَلِقًا أَمَامَ كُلِّ جَدِيدٍ:

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: الْمَنْهَجُ الْفَلْسَفِيُّ (وُجُوبُ التَّمَايُزِ الْمَعْرِفِيِّ)

يُقَعِّدُ الْعَقْلُ الْبُرْهَانِيُّ لِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ كَضَرُورَةٍ لِحِفْظِ نِظَامِ الْحَقِيقَةِ:
بُرْهَانُ الِانْفِصَالِ بَيْنَ السَّمْعِ وَالْيَقِينِ: فَلْسَفِيًّا، السَّمْعُ هُوَ قَنَاةُ نَقْلٍ لَا قَنَاةُ تَصْدِيقٍ. مَنْ يُحَدِّثُ بِكُلِّ مَا سَمِعَ فَقَدْ أَلْغَى "الْقُوَّةَ الْمُمَيِّزَةَ" فِي عَقْلِهِ، فَصَارَ وُجُودُهُ النُّطْقِيُّ مُجَرَّدَ انْعِكَاسٍ آلِيٍّ لِلْمُؤَثِّرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ.
الْجَهْلُ بِالْمُمْكِنَاتِ: إِنَّ رَدَّ كُلِّ مَا حَدَّثَ بِهِ النَّاسُ يُعَدُّ "عَمًى مَعْرِفِيًّا"؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ الْحَكِيمَ يَجِبُ أَنْ يَتَوَقَّفَ فِيمَا لَا يَعْلَمُ. فَالنَّفْيُ الْقَطْعِيُّ بِدُونِ بُرْهَانٍ هُوَ وُقُوعٌ فِي "الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ"، حَيْثُ يَظُنُّ الْمَرْءُ أَنَّ عَدَمَ عِلْمِهِ بِالشَّيْءِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وُجُودِ الشَّيْءِ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الْمَنْهَجُ الْأَخْلَاقِيُّ (صِيَانَةُ الْمُرُوءَةِ وَأَمَانَةُ الْكَلِمَةِ)

يُرَكِّزُ هَذَا الْمَطْلَبُ عَلَى مَلَكَةِ "الْوَرَعِ النُّطْقِيِّ" وَأَثَرِهَا عَلَى كَمَالِ النَّفْسِ:
عِفَّةُ اللِّسَانِ عَنِ الْكَذِبِ الْحُكْمِيِّ: الْأَخْلَاقُ الْعَلَوِيَّةُ تَرَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ مَسْؤُولٌ عَنْ نَتَائِجِ قَوْلِهِ. فَالنَّقْلُ الْعَشْوَائِيُّ -وَإِنْ خَلَا مِنَ الْقَصْدِ- يُنْتِجُ "بَاطِلاً"، وَإِشَاعَةُ الْبَاطِلِ تَخْدِشُ وَقَارَ الشَّخْصِيَّةِ وَتُسْقِطُ ثِقَةَ الْمُجْتَمَعِ فِيهَا.
التَّوَاضُعُ فِي التَّلَقِّي: إِنَّ "الرَّدَّ" عَلَى النَّاسِ غَالِبًا مَا يَكُونُ دَافِعُهُ الْكِبْرُ وَادِّعَاءُ الْإِحَاطَةِ. الْأَخْلَاقُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ "مُسْتَمِعًا وَاعِيًا"، يَقْبَلُ الْحَقَّ مِمَّنْ جَاءَ بِهِ وَيَصْمُتُ عَمَّا لَا يُدْرِكُهُ، تَرَفُّعًا عَنْ صِفَةِ الْجَهْلِ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الْمَنْهَجُ الْعِرْفَانِيُّ (تَصْفِيَةُ السِّرِّ وَمَقَامُ الصَّمْتِ)

يَنْفُذُ التَّحْلِيلُ إِلَى أَثَرِ النُّطْقِ عَلَى "الْجَمْعِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ" لِلسَّالِكِ:
تَجْرِيدُ الْقَلْبِ عَنْ كَدَرِ الْأَخْبَارِ: عِنْدَ أَهْلِ السُّلوكِ، كَثْرَةُ التَّحْدِيثِ هِيَ "تَبْدِيدٌ لِلنُّورِ". فَالسَّالِكُ الَّذِي يَنْقُلُ كُلَّ مَا سَمِعَ يَحْجِبُ سِرَّهُ بِكَثْرَةِ الصُّوَرِ الْخَيَالِيَّةِ لِلْخَلْقِ، مِمَّا يَمْنَعُهُ مِنْ "خَلْوَةِ الذِّكْرِ". الصَّمْتُ عَنِ الْمَشْكُوكِ فِيهِ هُوَ صِيَانَةٌ لِطَهَارَةِ الْبَاطِنِ.
أَدَبُ الِاسْتِغْرَاقِ فِي الْحَقِّ: السَّالِكُ لَا يَرُدُّ قَوْلَ أَحَدٍ بِمَحْضِ الْهَوَى، لِأَنَّهُ يَرَى فِي كُلِّ شَيْءٍ وَجْهًا مِنَ الْحَقِيقَةِ. الرَّدُّ الْمُتَسَرِّعُ يُوَرِّثُ "ظُلْمَةً" وَانْقِطَاعًا، بَيْنَمَا التَّأَمُّلُ وَالتَّثَبُّتُ يَرْفَعَانِ الْحُجُبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَارِفِ الْغَيْبِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: الْمَنْهَجُ الْبَيَانِيُّ (بَلَاغَةُ الْحَصْرِ وَإِيجَازُ التَّحْذِيرِ)

يَكْشِفُ هَذَا الْمَطْلَبُ عَنْ سِرِّ الْقُوَّةِ فِي السَّبْكِ اللَّفْظِيِّ لِلْوَصِيَّةِ:

الْمُقَابَلَةُ التَّنَاظُرِيَّةُ: بَنَى الْإِمَامُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) الْجُمْلَتَيْنِ بِنَسَقٍ مُتَوَازِنٍ (تُحَدِّثُ/تَرُدُّ) يُقَابِلُهُمَا (كَذِبًا/جَهْلًا). هَذَا "التَّقَابُلُ" يُؤَدِّي إِلَى حَصْرِ مَسَالِكِ الْخَطَأِ، مِمَّا يَجْعَلُ الْقَاعِدَةَ "جَامِعَةً مَانِعَةً".
إِعْجَازُ "الْكِفَايَةِ": قَوْلُهُ «فَكَفَى بِذَلِكَ» يُعَدُّ مِنْ بَلِيغِ "الْقَصْرِ التَّعْلِيلِيِّ". فَلَمْ يَقُلْ "إِنَّهُ سَبَبٌ لِلْكَذِبِ"، بَلْ جَعَلَ الْفِعْلَ نَفْسَهُ هُوَ عَيْنُ الْكَذِبِ أَوْ الْجَهْلِ فِي مَقَامِ الْحُكْمِ، وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ صُوَرِ الزَّجْرِ عَنِ التَّسَاهُلِ فِي النُّطْقِ.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: الْفَوَائِدُ الْوُجُودِيَّةُ (ثَمَرَاتُ الْحِكْمَةِ فِي النَّفْسِ وَالْمُجْتَمَعِ)

تَتَجَلَّى ثَمَرَةُ الِالْتِزَامِ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ فِي عِدَّةِ مَنَافِعَ جَوْهَرِيَّةٍ:
فَائِدَةُ التَّأْصِيلِ وَالْمَوْثُوقِيَّةِ: حِينَمَا يَكُفُّ الْمَرْءُ عَنْ نَقْلِ كُلِّ مَسْمُوعٍ، يَرْتَقِي كَلَامُهُ إِلَى مَرْتَبَةِ "الْحُجَّةِ" بَيْنَ النَّاسِ، فَيُصْبِحُ قَوْلُهُ مِعْيَاراً لِلصِّدْقِ وَيُحْتَرَمُ رَأْيُهُ فِي الْمَحَافِلِ.
فَائِدَةُ السَّكِينَةِ الذِّهْنِيَّةِ: الْإِعْرَاضُ عَنْ خَوْضِ الْأَبَاطِيلِ وَتَرْكُ الرَّدِّ الْجَاهِلِ يُوَفِّرُ عَلَى النَّفْسِ "طَاقَةً ذِهْنِيَّةً" كَبِيرَةً، مِمَّا يَمْنَحُ الْعَقْلَ هُدُوءاً يَسْمَحُ لَهُ بِالتَّرْكِيزِ عَلَى الْحَقَائِقِ الْكُلِّيَّةِ وَالْمَعَارِفِ النَّافِعَةِ.
فَائِدَةُ السَّلَامَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ: تَعْمَلُ هَذِهِ الْحِكْمَةُ كَـ "مِصْفَاةٍ" تَمْنَعُ انْتِشَارَ الْإِشَاعَاتِ وَالْفِتَنِ؛ فَلَوْ أَمْسَكَ كُلُّ امْرِئٍ عَمَّا لَمْ يَتَيَقَّنْ، لَمَاتَ الْبَاطِلُ فِي مَهْدِهِ، وَلَسَادَ الْعِلْمُ بَدَلَ الْجَهْلِ.

سَادِساً: شَوَاهِدُ التَّصْدِيقِ (الْمِعْيَارُ النَّقْلِيُّ مِنَ الْأَثَرِ الشِّيعِيِّ)

تَتَضَافَرُ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ لِتُقَرِّرَ أَنَّ "اللِّسَانَ" هُوَ مِرْآةُ الْعَقْلِ وَتَرْجُمَانُ الْبَصِيرَةِ، وَأَنَّ صِيَانَتَهُ هِيَ صِيَانَةٌ لِلْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ مِنَ السُّقُوطِ، وَمِنْ ذَلِكَ:
١. بُرْهَانُ التَّنْزِيلِ (الرَّقَابَةُ الْوُجُودِيَّةُ)
حَضُورُ الشُّهُودِ: يَقُولُ تَعَالَى: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (١)؛ يُؤَصِّلُ الْقُرْآنُ لِحَقِيقَةِ أَنَّ الْكَلِمَةَ بَعْدَ خُرُوجِهَا تَتَحَوَّلُ إِلَى كَيَانٍ مَشْهُودٍ لَا يَمْحُوهُ الزَّمَانُ، مِمَّا يَجْعَلُ الِاحْتِرَازَ فِي النُّطْقِ ضَرُورَةً لِاسْتِقَامَةِ النَّفْسِ أَمَامَ الْحَقِّ الْمُطْلَقِ.
٢. الْأَثَرُ الرِّوَائِيُّ (مِيزَانُ الصِّدْقِ وَالْوَرَعِ)
مَزْلَقُ التَّحْدِيثِ الْكُلِّيِّ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «إِنَّمَا يَكْذِبُ الرَّجُلُ إِذَا حَدَّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ» (٢)؛ وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ عِرْفَانِيٌّ إِلَى أَنَّ نَقْلَ (الْمَسْمُوعِ) دُونَ تَمْحِيصِ (الْمَعْقُولِ) يُسْقِطُ الْإِنْسَانَ فِي ظُلُمَاتِ الزَّيْفِ، وَإِنْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْكَذِبَ، لِأَنَّهُ فَرَّطَ فِي مِيزَانِ التَّثَبُّتِ.
تَقْدِيسُ الْعِلْمِ وَالْقِلَّةِ: رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ، وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ» (٣)؛ يُبَيِّنُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَنَّ حَقِيقَةَ النُّطْقِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ تَبَعًا لِحَقِيقَةِ الْعِلْمِ؛ فَالصَّمْتُ عَمَّا لَا يَعْلَمُهُ الْمَرْءُ هُوَ عَيْنُ الْعِلْمِ بِقَدْرِ النَّفْسِ وَعَظَمَةِ الْحَقِّ.
الْوَرَعُ عِنْدَ مَضَايِقِ الشُّبْهَةِ: رُوِيَ فِي الْأَثَرِ: «أَوْرَعُ النَّاسِ مَنْ وَقَفَ عِنْدَ الشُّبْهَةِ» (٤)؛ وَحَيْثُ إِنَّ التَّحْدِيثَ بِكُلِّ مَسْمُوعٍ هُوَ مَظِنَّةُ الْخَطَأِ وَأَعْظَمُ الشُّبُهَاتِ، فَإِنَّ (الْوُقُوفَ) عَنِ الْقَوْلِ يَكُونُ هُنَا هُوَ قِمَّةَ الِارْتِقَاءِ الرُّوحِيِّ وَالْوَرَعِ عَنْ هَتْكِ حُرْمَةِ الصِّدْقِ.

خَاتِمَةُ التَّحْقِيقِ (حَصَانَةُ الصِّدْقِ)

يَخْلُصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ الْعَلَوِيَّةَ تُؤَسِّسُ لِـ "السِّيَادَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ". فَالْمُؤْمِنُ الْحَقُّ هُوَ الَّذِي يَصُونُ لِسَانَهُ بِالْعَقْلِ، وَعَقْلَهُ بِالتَّثَبُّتِ. إِنَّ الِاعْتِصَامَ بِهَذِهِ الْمَبَانِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ مَنْبَعًا لِلْيَقِينِ، بَعِيدًا عَنْ مَزَالِقِ الزُّورِ وَانْغِلَاقِ الْجَهْلِ، لِيَبْقَى وُجُودُهُ شَهَادَةً حَيَّةً عَلَى نُورِ الصِّدْقِ وَحِكْمَةِ السُّتْرَةِ.

الْمَصَادِرُ:

(١) سُورَةُ ق، الْآيَةُ ١٨.
(٢) الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٢، ص ٣٤١.
(٣) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، الْوَصِيَّةُ ٣١.
(٤) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٧٠، ص ٣٩٧.

تَرْوِيضُ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَسِيَادَةُ الْحِلْمِ: دِرَاسَةٌ فِي كَمَالِ السُّلوكِ وَحِكْمَةِ الِاقْتِدَارِ

«وَاكْظِمِ الْغَيْظَ، وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ، وَاحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ، تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ»
تُمَثِّلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ مَنْظُومَةً حَاكِمَةً لِإِدَارَةِ "الِانْفِعَالِ الْبَشَرِيِّ"، حَيْثُ تَنْقُلُ الْإِنْسَانَ مِنْ مَقَامِ الِانْفِعَالِ إِلَى مَقَامِ الْفِعْلِ الرَّشِيدِ.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: الْمَنْهَجُ الْفَلْسَفِيُّ (سِيَادَةُ الْعَقْلِ عَلَى الْقُوَّةِ السَّبُعِيَّةِ)

تَقُومُ الْفَلْسَفَةُ الْعَلَوِيَّةُ هُنَا عَلَى بُرْهَانِ "السِّيَادَةِ"؛ فَالْغَضَبُ فِي جَوْهَرِهِ غَلَيَانٌ لِدَمِ الْقَلْبِ يَطْلُبُ الِانْتِقَامَ، وَهُوَ مِنْ مَظَاهِرِ النَّفْسِ السَّبُعِيَّةِ. التَّحْقِيقُ الْفَلْسَفِيُّ يَرَى أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ الِانْعِتَاقُ مِنْ سُلْطَةِ الِانْفِعَالِ، فَـ «تَجَاوُزُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ» يُبَرْهِنُ عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ هُوَ الْمُدَبِّرُ الْأَوَّلُ، وَأَنَّ ذَاتَ الْإِنْسَانِ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ تَنْقَادَ لِدَوَاعِي التَّشَفِّي. هَذَا يَتَّسِقُ مَعَ الْقَاعِدَةِ الْقَائِلَةِ بِأَنَّ مَنْ غَلَبَ هَوَاهُ فَقَدْ ظَهَرَ عَقْلُهُ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْحِلْمُ هُوَ مَقَامُ "الِاسْتِكْمَالِ الْوُجُودِيِّ" لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الْمَنْهَجُ الْأَخْلَاقِيُّ (مَلَكَةُ الصَّفْحِ وَجَمَالُ الِاقْتِدَارِ)

يَتَرَابَطُ الْأَخْلَاقُ بِالْفِعْلِ عَبْرَ تَحْوِيلِ "كَظْمِ الْغَيْظِ" مِنْ حَالَةٍ طَارِئَةٍ إِلَى مَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ. الْأَخْلَاقُ الْعَلَوِيَّةُ لَا تَرَى الْعَفْوَ عَنْ عَجْزٍ كَمَالاً، بَلِ الْكَمَالُ فِي «الصَّفْحِ مَعَ الدَّوْلَةِ»؛ أَيْ فِي قِمَّةِ الِاسْتِعْلَاءِ وَالْقُوَّةِ. هَذَا التَّوَازُنُ الْأَخْلَاقِيُّ يَحْمِي الْكِيَانَ الِاجْتِمَاعِيَّ مِنْ دَوْرَةِ الْعُنْفِ، وَيَبْنِي فِي النَّفْسِ "عِزَّةً" تَتَرَفَّعُ عَنْ مُبَادَلَةِ الْإِسَاءَةِ بِمِثْلِهَا، مِمَّا يَجْعَلُ الصَّفْحَ هُوَ "زَكَاةُ الِاقْتِدَارِ".

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الْمَنْهَجُ الْعِرْفَانِيُّ (شُهُودُ الْحَقِّ فِي مَقَامِ الْقَهْرِ)

يُعَدُّ الْغَضَبُ "حِجَاباً" يَحْجِبُ السَّالِكَ عَنْ شُهُودِ جَمَالِ الْحَقِّ. السَّالِكُ حِينَمَا يَكْظِمُ غَيْظَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَرَى الْخَصْمَ، بَلْ يَرَى "الْمُبْتَلِيَ" سُبْحَانَهُ، فَيَصِيرُ صَبْرُهُ عِبَادَةً.
«الْحِلْمُ عِنْدَ الْغَضَبِ» هُوَ تَجَلِّي صِفَةِ "السَّكِينَةِ" فِي الْقَلْبِ، حَيْثُ تَفْنَى رُؤْيَةُ النَّفْسِ وَتَنْتَفِي رَغْبَةُ الِانْتِصَارِ لَهَا، لِيَكُونَ الْعَفْوُ هُنَا فَنَاءً فِي صِفَةِ "الْعَفُوِّ" الْإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ أَعْلَى مَقَامَاتِ السُّلوكِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: الْمَنْهَجُ الْبَيَانِيُّ (بَلَاغَةُ التَّرْتِيبِ وَسِحْرُ الْخَاتِمَةِ)

يَنْكَشِفُ تَرَابُطُ الْوَصِيَّةِ بَيَانِيّاً مِنْ خِلَالِ "الْهَنْدَسَةِ اللَّفْظِيَّةِ"، حَيْثُ بَدَأَ بِالْفِعْلِ الْبَاطِنِيِّ (كَظْمِ الْغَيْظِ)، ثُمَّ انْتَقَلَ لِلْفِعْلِ الظَّاهِرِيِّ (التَّجَاوُزِ)، لِيَصِلَ إِلَى الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ (الْحِلْمِ). وَمِنْ بَلِيغِ الْقَوْلِ مُقَابَلَةُ "الدَّوْلَةِ" (السَّلْطَنَةِ الزَّائِلَةِ) بِـ "الْعَاقِبَةِ" (الظَّفَرِ الْخَالِدِ). هَذَا السَّبْكُ الْبَيَانِيُّ يُحَرِّكُ النَّفْسَ لِتَرْكَ كُلِّ مَا هُوَ عَرَضِيٌّ طَمَعاً فِيمَا هُوَ جَوْهَرِيٌّ وَبَاقٍ.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: الْفَوَائِدُ الْوُجُودِيَّةُ (ثَمَرَاتُ الْحِكْمَةِ فِي الْحَيَاةِ)

فَائِدَةُ الْهَيْبَةِ وَالسُّودَدِ: مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ مَلَكَ قُلُوبَ النَّاسِ، فَالْحِلْمُ يَحُطُّ مِنْ قَدْرِ الْخَصْمِ وَيَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ الْحَلِيمِ.

فَائِدَةُ السَّلَامَةِ الرُّوحِيَّةِ: التَّجَاوُزُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ يُطَهِّرُ النَّفْسَ مِنْ سُمُومِ الْأَحْقَادِ، مِمَّا يُوَرِّثُ طُمَأْنِينَةً دَائِمَةً وَصَفَاءً فِي الْفِكْرِ.
فَائِدَةُ حُسْنِ الْمَآلِ: بِنَصِّ الْوَصِيَّةِ، فَإِنَّ "الْعَاقِبَةَ" تُرْهَنُ بِهَذِهِ الْأَفْعَالِ، وَهِيَ فَائِدَةٌ تَمْتَدُّ مِنْ حَمْدِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ.

سَادِساً: شَوَاهِدُ التَّصْدِيقِ (الْمِعْيَارُ النَّقْلِيُّ الشِّيعِيُّ)

تَتَضَافَرُ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ لِتَرْسِمَ مَسَارَ الِارْتِقَاءِ مِنَ الْقُوَى النُّزُوعِيَّةِ إِلَى الْكَمَالَاتِ الْقُدْسِيَّةِ، حَيْثُ يَتَحَوَّلُ الْإِنْسَانُ بِمُجَاهَدَةِ بَاطِنِهِ إِلَى مَجْلًى لِلْجَمَالِ الْإِلَهِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ:
١. بُرْهَانُ التَّنْزِيلِ (تَرَاتُبِيَّةُ الْكَمَالِ الْأَخْلَاقِيِّ)
سَيْرُ الِارْتِقَاءِ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (١)؛ يُصَدِّقُ هَذَا الشَّاهِدُ التَّدَرُّجَ الْعِرْفَانِيَّ الَّذِي رَسَمَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)؛ حَيْثُ يَبْدَأُ بِـ (الْكَظْمِ) وَهُوَ حَبْسُ نَارِ الْبَاطِنِ، ثُمَّ يَتَرَقَّى إِلَى (الْعَفْوِ) وَهُوَ تَطْهِيرُ السَّاحَةِ مِنَ الْأَثَرِ، وُصُولًا إِلَى (الْإِحْسَانِ) وَهُوَ بَذْلُ النُّورِ لِلْآخَرِ، فَيَكُونُ الظَّاهِرُ مِرْآةً لِصَفَاءِ الْجَوْهَرِ.
٢. الشَّوَاهِدُ الرِّوَائِيَّةُ (سُلْطَانُ الْعَقْلِ وَعِزُّ الْيَقِينِ)
مَجْدُ الِانْتِصَارِ عَلَى الذَّاتِ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «مَا مِنْ عَبْدٍ كَظَمَ غَيْظاً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِزّاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (٢)؛ وَفِي هَذَا بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ الْعِزَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَيْسَتْ فِي الِانْفِعَالِ وَالْبَطْشِ، بَلْ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى كَبْحِ جِمَاحِ النَّفْسِ، حَيْثُ يَنْقَلِبُ انْكِسَارُ الْغَضَبِ إِلَى صَلَابَةٍ فِي الرُّوحِ وَرِفْعَةٍ فِي الْمَقَامِ.
شَرَفُ التَّجَاوُزِ عِنْدَ الِاسْتِعْلَاءِ: رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ» (٣)؛ وَهَذَا تَصْدِيقٌ لِقَاعِدَةِ "التَّجَاوُزِ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ"؛ إِذْ يَكُونُ الْعَفْوُ كَمَالًا حِينَ يَصْدُرُ عَنْ عُلُوٍّ وَاقْتِدَارٍ، لَا عَنْ عَجْزٍ وَاضْطِرَارٍ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ فِعْلًا رَبَّانِيًّا مَحْضًا.
إِشْرَاقُ الْحِلْمِ عَنِ الْقُوَّةِ الْعَاقِلَةِ: رُوِيَ فِي الْأَثَرِ: «الْحِلْمُ نُورٌ جَوْهَرُهُ الْعَقْلُ» (٤)؛ وَهُوَ يُعَضِّدُ الرَّبْطَ الْفَلْسَفِيَّ بَيْنَ إِدْرَاكَاتِ الْعَقْلِ الْكُلِّيِّ وَبَيْنَ السُّلوكِ الْحَلِيمِ؛ فَالْحِلْمُ لَيْسَ سُكُونًا سَلْبِيًّا، بَلْ هُوَ ضِيَاءٌ يَنْبَثِقُ مِنْ رَزَانَةِ الْمَادَّةِ الْعَقْلِيَّةِ حِينَ تَسُودُ عَلَى الِانْفِعَالَاتِ الْحِسِّيَّةِ.

خَاتِمَةُ التَّحْقِيقِ (حَقِيقَةُ الْفَتْحِ)

يَخْلُصُ التَّحْقِيقُ إِلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ الْعَلَوِيَّةَ هِيَ "مِعْرَاجُ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ". إِنَّ الِاعْتِصَامَ بِهَذِهِ الْمَبَانِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ سَيِّداً لَا يُقْهَرُ بِمَطَامِعِ نَفْسِهِ، بَلْ يَفْتَحُ الْآفَاقَ بِنُورِ صَفْحِهِ، لِيَكُونَ "طَوْدًا" رَاسِخًا فِي مَهَبِّ رِيَاحِ الْغَضَبِ، فَتَكُونَ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدَّارَيْنِ.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَان، الْآيَةُ ١٣٤.
(٢) الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٢، ص ١١٠.
(٣) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، حِكْمَةُ ٥٢.
(٤) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٦٨، ص ٤٢٢.

فَلْسَفَةُ الِاسْتِصْلَاحِ وَمَقَامُ الشُّكْرِ الْعَمَلِيِّ: دِرَاسَةٌ فِي تَدْبِيرِ النِّعَمِ وَظُهُورِ الْأَثَرِ

«وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَيْكَ، وَلَا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكَ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ»

هَذِهِ الْوَصِيَّةُ مِنْ رُؤْيَةٍ كَوْنِيَّةٍ تَعْتَبِرُ "النِّعْمَةَ" أَمَانَةً وُجُودِيَّةً تَقْتَضِي الرِّعَايَةَ وَالتَّثْمِيرَ. إِنَّ السَّبْكَ الْعَلَوِيَّ هُنَا يَرْبِطُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ مَحَاوِرَ: (الِاسْتِصْلَاحِ) كَفِعْلٍ تَنْمَوِيٍّ، وَ(عَدَمِ التَّضْيِيعِ) كَفِعْلٍ وِقَائِيٍّ، وَ(إِظْهَارِ الْأَثَرِ) كَفِعْلٍ إِعْلَامِيٍّ بِمَقَامِ الشُّكْرِ.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: الْمَنْهَجُ الْفَلْسَفِيُّ (وُجُوبُ حِفْظِ الِاسْتِعْدَادِ وَتَكْمِيلِ الْوُجُودِ)

يُقَعِّدُ الْعَقْلُ الْبُرْهَانِيُّ لِمَفْهُومِ "الِاسْتِصْلَاحِ" بِأَنَّهُ سَعْيٌ لِإِيصَالِ النِّعْمَةِ إِلَى كَمَالِهَا الْغَائِيِّ. فَلْسَفِيّاً، النِّعْمَةُ هِيَ "قُوَّةٌ" تَحْتَاجُ إِلَى "فِعْلٍ"؛ فَإِذَا أَهْمَلَ الْإِنْسَانُ اسْتِصْلَاحَهَا (أَيْ تَدْبِيرَهَا وَصِيَانَتَهَا)، فَقَدْ حَكَمَ عَلَيْهَا بِالزَّوَالِ لِأَنَّ "الْمَادَّةَ إِذَا تَعَطَّلَتْ عَنْ صُورَتِهَا فَسَدَتْ". هَذَا يَتَرَابَطُ مَعَ مَبْدَأِ "الْوِلَايَةِ عَلَى الْمِلْكِ"، حَيْثُ يَكُونُ الْمَرْءُ مَسْؤُولاً عَنْ تَوْجِيهِ مَوَاهِبِهِ وَإِمْكَانَاتِهِ نَحْوَ الْغَايَةِ الَّتِي وُجِدَتْ لِأَجْلِهَا، مِمَّا يَجْعَلُ "التَّضْيِيعَ" خُرُوجاً عَنْ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْعَقْلِيَّةِ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الْمَنْهَجُ الْأَخْلَاقِيُّ (أَمَانَةُ الِاسْتِعْمَالِ وَقُبْحُ الْكُفْرَانِ)

تَتَجَلَّى الْأَخْلَاقُ الْعَلَوِيَّةُ فِي اعْتِبَارِ النِّعَمِ "رَسَائِلَ إِلَهِيَّةً" تَقْتَضِي أَدَبَ التَّعَامُلِ. فَالِاسْتِصْلَاحُ هُوَ "شُكْرٌ عَمَلِيٌّ"، بَيْنَمَا التَّضْيِيعُ هُوَ رُعُونَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ تُنْبِئُ عَنْ جُحُودِ الْمُنْعِمِ. أَمَّا «إِظْهَارُ الْأَثَرِ» فَهُوَ خُلُقُ "التَّحَدُّثِ بِالنِّعْمَةِ" بَعِيداً عَنْ خُيَلَاءِ الْكِبْرِ؛ لِأَنَّ كَتْمَ النِّعْمَةِ مَعَ وُجُودِهَا يُعَدُّ "بُخْلاً وُجُودِيّاً" يَحْرِمُ الْمُجْتَمَعَ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَيُظْهِرُ الْإِنْسَانَ بِمَظْهَرِ الْمَحْرُومِ رَغْمَ جُودِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الْمَنْهَجُ الْعِرْفَانِيُّ (شُهُودُ الْمُنْعِمِ فِي مِرْآةِ النِّعْمَةِ)

عِنْدَ أَهْلِ السُّلوكِ، النِّعْمَةُ هِيَ "تَجَلٍّ" لِلْجُودِ الْإِلَهِيِّ. اسْتِصْلَاحُ النِّعْمَةِ يَعْنِي "تَطْهِيرَ الْقَابِلِ" لِيَسْتَفِيضَ مَزِيداً مِنَ النُّورِ. السَّالِكُ لَا يَرَى النِّعْمَةَ مِلْكاً لَهُ، بَلْ يَرَاهَا "رِبَاطاً" بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِّ؛ لِذَا فَإِنَّ تَرْكَ التَّضْيِيعِ هُوَ عَيْنُ "الْحُضُورِ" مَعَ اللَّهِ. أَمَّا ظُهُورُ الْأَثَرِ، فَهُوَ أَنْ يَكُونَ "مِرْآةً" لِفَضْلِ اللَّهِ، لَا لِأَنَاقَةِ نَفْسِهِ، فَيَرَى الْخَلْقُ فِيهِ جَمَالَ تَدْبِيرِ الْخَالِقِ، فَيَصِيرُ بِذَلِكَ دَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِصَامِتِ حَالِهِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: الْمَنْهَجُ الْبَيَانِيُّ (إِعْجَازُ الْأَمْرِ وَبَلَاغَةُ الظُّهُورِ)

يَتَرَابَطُ النَّصُّ بَيَانِيّاً عَبْرَ ثَلَاثِ صِيَغٍ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ: (اسْتَصْلِحْ - لَا تُضَيِّعَنَّ - لِيُرَ). الِابْتِدَاءُ بِالطَّلَبِ (اسْتَصْلِحْ) يُشِيرُ إِلَى الْمُبَادَرَةِ، وَتَوْكِيدُ النَّهْيِ بِالنُّونِ (لَا تُضَيِّعَنَّ) يُشِيرُ إِلَى خُطُورَةِ التَّهَاوُنِ. ثُمَّ تَأْتِي لَامُ الْأَمْرِ فِي (لْيُرَ) لِتُحَوِّلَ النِّعْمَةَ مِنْ شَأْنٍ شَخْصِيٍّ إِلَى شَهَادَةٍ بَصَرِيَّةٍ عَامَّةٍ. هَذَا التَّنَوُّعُ فِي الْأَسَالِيبِ الْإِنْشَائِيَّةِ يُحِيطُ بِالنِّعْمَةِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا: (النَّمَاء، الْحِفْظ، الْإِعْلَان).

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: الْفَوَائِدُ الْوُجُودِيَّةُ (ثَمَرَاتُ الرِّعَايَةِ وَبَرَكَةُ الِاعْتِرَافِ)

فَائِدَةُ النَّمَاءِ وَالِاسْتِزَادَةِ: الِاسْتِصْلَاحُ يُؤَدِّي إِلَى "تَفْعِيلِ" النِّعْمَةِ، وَبِالشُّكْرِ الْعَمَلِيِّ يَتَحَقَّقُ الْوَعْدُ بِالزِّيَادَةِ، فَالنِّعْمَةُ الْمُسْتَصْلَحَةُ وِلادَةٌ لِنِعَمٍ أُخْرَى.
فَائِدَةُ الْحَصَانَةِ مِنَ الزَّوَالِ: تَرْكُ التَّضْيِيعِ هُوَ "قَيْدُ النِّعْمَةِ"؛ فَالنِّعَمُ تَفِرُّ مِنَ الْمُهْمِلِ كَمَا يَفِرُّ الصَّيْدُ مِنَ الشَّبَكَةِ الْمُخَرَّقَةِ.
فَائِدَةُ التَّأْثِيرِ الِاجْتِمَاعِيِّ: رُؤْيَةُ أَثَرِ النِّعْمَةِ عَلَى صَاحِبِهَا تَبُثُّ رُوحَ الْأَمَلِ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَتُشَجِّعُ عَلَى الِاقْتِدَاءِ فِي طَلَبِ الْفَضْلِ وَحُسْنِ التَّدْبِيرِ.

سَادِساً: شَوَاهِدُ التَّصْدِيقِ (الشَّوَاهِدُ الرِّوَائِيَّةُ وَالنَّقْلِيَّةُ)

تَتَضَافَرُ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ "النِّعْمَةَ" لَيْسَتْ لِلتَّمَلُّكِ الْأَنَانِيِّ، بَلْ هِيَ أَمَانَةٌ يَقْتَضِي شُكْرُهَا سَيَلَانَ أَثَرِهَا عَلَى الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَمِنْ ذَلِكَ:
١. الشَّوَاهِدُ الْقُرْآنِيَّةُ (فَلْسَفَةُ التَّحْدِيثِ بِالْفَيْضِ)
مَظْهَرِيَّةُ النِّعْمَةِ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» (١)؛ يُصَدِّقُ هَذَا الشَّاهِدُ مَقَامَ "الْجَلَاءِ الْوُجُودِيِّ" لِلنِّعْمَةِ؛ حَيْثُ يُعَدُّ التَّحْدِيثُ بِهَا—سَوَاءً بِاللِّسَانِ أَوْ بِالْحَالِ—إِقْرَارًا بِالْفَقْرِ إِلَى الْمُنْعِمِ، وَهُوَ عَيْنُ مَا رَسَمَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي ضَرُورَةِ ظُهُورِ أَثَرِ الْفَيْضِ الْإِلَهِيِّ عَلَى الْعَبْدِ.
٢. الشَّوَاهِدُ الرِّوَائِيَّةُ الشِّيعِيَّةُ (أَدَبُ الْجَمَالِ وَحِفْظِ الْأَمَانَةِ)
مَحَبَّةُ الْجَمَالِ الرَّبَّانِيِّ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَالتَّجَمُّلَ، وَيُبْغِضُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ...» (٢)؛ وَهَذَا شَرْحٌ وُجُودِيٌّ لِلْوَصِيَّةِ الْعَلَوِيَّةِ؛ إِذْ إِنَّ "التَّبَاؤُسَ" هُوَ كُفْرَانٌ عَمَلِيٌّ بِالْجَمَالِ، بَيْنَمَا "إِظْهَارُ الْأَثَرِ" هُوَ اتِّسَاقٌ مَعَ الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي أَنْعَمَتْ لِتُعْرَفَ بِجُودِهَا.
الْحَذَرُ مِنْ نِفَارِ النِّعَمِ: رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «احْذَرُوا نِفَارَ النِّعَمِ، فَمَا كُلُّ شَارِدٍ بِمَرْدُودٍ» (٣)؛ وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ مِنْ "سُوءِ الِاسْتِخْدَامِ" أَوْ "التَّضْيِيعِ"؛ فَالنِّعْمَةُ كَائِنٌ يَقْرَبُ بِالشُّكْرِ وَالِاسْتِصْلَاحِ، وَيَنْفِرُ بِالْإِهْمَالِ، فَمَنْ لَمْ يُرَ عَلَيْهِ أَثَرُهَا، فَقَدْ آذَنَ بِزَوَالِهَا.
حُسْنُ الْجِوَارِ الْمَعْنَوِيِّ: رُوِيَ فِي الْأَثَرِ: «أَحْسِنُوا جِوَارَ النِّعَمِ» (٤)؛ وَحُسْنُ الْجِوَارِ هُنَا يَعْنِي "الِاسْتِصْلَاحَ" وَتَرْكَ التَّبْذِيرِ؛ فَالْمُؤْمِنُ يَتَعَامَلُ مَعَ مَا فِي يَدِهِ بِرِعَايَةٍ تَجْعَلُ النِّعْمَةَ مُسْتَقِرَّةً فِي فِضَائِهِ، نَافِعَةً لِغَيْرِهِ، مُصَدِّقَةً لِجُودِ خَالِقِهِ.

خَاتِمَةُ التَّحْقِيقِ (دَيْمُومَةُ الْفَضْلِ)

يَخْلُصُ التَّحْقِيقُ إِلَى أَنَّ النِّعْمَةَ كِيَانٌ "حَيٌّ" يَزْكُو بِالتَّدْبِيرِ وَيَمُوتُ بِالتَّقْصِيرِ. إِنَّ الْأَمْرَ الْعَلَوِيَّ بِالِاسْتِصْلَاحِ وَإِظْهَارِ الْأَثَرِ هُوَ دَعْوَةٌ لِتَحْوِيلِ النِّعْمَةِ مِنْ "حِيَازَةٍ مَادِّيَّةٍ" إِلَى "رِسَالَةٍ قِيَمِيَّةٍ"، لِيَكُونَ الْمُؤْمِنُ فِيهَا شَاكِراً بِفِعْلِهِ، حَافِظاً لِأَمَانَتِهِ، مُمَهِّداً لِدَوَامِ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدَّارَيْنِ.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ الضُّحَى، الْآيَةُ ١١.
(٢) الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٦، ص ٤٣٨.
(٣) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، حِكْمَةُ ٢٤٦.
(٤) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٧٥، ص ١٤١.

إِحْكَامُ الْمِلْكِيَّةِ وَفَلْسَفَةُ الِاسْتِذْخَارِ الْوُجُودِيِّ: دِرَاسَةٌ فِي أَوْلَوِيَّاتِ السَّبْقِ وَتَحْوِيلِ الْأَعْرَاضِ إِلَى جَوَاهِرَ

«وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ، وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ»
تَنْطَلِقُ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ بَعْدَ الْعُنْوَانِ الرَّئِيسِ لِتَرْسُمَ مَدْخَلًا "إِحْكَامِيًّا" لِمَعْنَى (الْأَفْضَلِيَّةِ) فِي الْإِيمَانِ؛ حَيْثُ يَنْقُلُ الْإِمَامُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) الْمُؤْمِنَ مِنْ مَقَامِ "الِادِّعَاءِ الذِّهْنِيِّ" إِلَى مَقَامِ "الْفِعْلِ الْإِجْرَائِيِّ". إِنَّ مَدْخَلِيَّةَ النَّصِّ تَقُومُ عَلَى أَنَّ الْقِيمَةَ الْوُجُودِيَّةَ لِلْمَرْءِ تُقَاسُ بِمَا (يُفِيضُهُ) لَا بِمَا (يَحْتَوِيهِ)، وَبِمَا (يُبْرِمُهُ) مِنَ الْعُقُودِ مَعَ الْآخِرَةِ قَبْلَ انْفِصَامِ عُرَى الدُّنْيَا.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: التَّحْلِيلُ اللَّفْظِيُّ وَالْمُصْطَلَحُ الْإِحْكَامِيُّ

تَقْدِمَةً: مَصْدَرٌ يَدُلُّ عَلَى الِاسْتِبَاقِ وَالْإِرْسَالِ إِلَى "الْأَمَامِ الزَّمَانِيِّ". وَإِحْكَامِيًّا، تَعْنِي نَقْلَ الْمِلْكِيَّةِ مِنَ الْحَاضِرِ الزَّائِلِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْبَاقِي عَبْرَ "فِعْلِ التَّجْرِيدِ".
الذُّخْرُ: هُوَ مَا يُعَدُّ لِلشَّدَائِدِ بَعْدَ اقْتِطَاعِهِ مِنَ الْفَائِضِ. وَفِي الْمَنْطِقِ الْإِيمَانِيِّ، هُوَ "تَجْهِيزُ الْعَمَلِ"؛ أَيْ تَحْوِيلُهُ مِنْ وُجُودٍ عَرَضِيٍّ (مَال، جَاه) إِلَى وُجُودٍ جَوْهَرِيٍّ لَازِمٍ لِلنَّفْسِ لَا يَنْفَكُّ عَنْهَا بِالْمَوْتِ.
خَيْرُهُ (لِلْغَيْرِ): اسْتِخْدَامُ "الْخَيْرِ" لِلْغَيْرِ هُنَا فِيهِ إِحْكَامٌ لِمَعْنَى انْتِقَالِ "الْمَنْفَعَةِ الْمَادِّيَّةِ" لِلْوَارِثِ، مَعَ انْقِطَاعِ "الصِّلَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ" عَنِ الْمُوَرِّثِ، مِمَّا يَعْنِي انْفِصَالَ (الْغُنْمِ) عَنِ (الْغُرْمِ).

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الْمَنْهَجُ الْفَلْسَفِيُّ (بُرْهَانُ الْبَقَاءِ وَتَبَدُّلِ الْإِضَافَةِ)

فَلْسَفِيًّا، الْمِلْكِيَّةُ عِبَارَةٌ عَنْ "إِضَافَةٍ" بَيْنَ الْمَالِكِ وَالْمَمْلُوكِ. أَنَّ الْمَوْتَ يَقْطَعُ هَذِهِ الْإِضَافَةَ حَتْمًا، فَتَسْقُطُ "الْأَنَا" عَنِ الْمَالِ. فَإِذَا (تَأَخَّرَ) الْبَذْلُ، انْتَقَلَتِ الْإِضَافَةُ لِلْغَيْرِ شَرْعاً وَقَدَراً. أَمَّا (التَّقْدِمَةُ) فَهِيَ الْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ لِتَحْوِيلِ "الْعَرَضِ الزَّائِلِ" إِلَى "جَوْهَرٍ مُتَّحِدٍ بِالنَّفْسِ"؛ حَيْثُ يَعُودُ الْعَمَلُ صِفَةً لِلذَّاتِ، وَالصِّفَاتُ تَبْقَى بِبَقَاءِ مَوْصُوفِهَا.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الْمَنْهَجُ الْأَخْلَاقِيُّ (كَمَالُ الْإِيثَارِ وَتَحْرِيرُ الْإِرَادَةِ)

تَتَجَلَّى الْأَخْلَاقُ الْعَلَوِيَّةُ فِي رَبْطِ (الْأَفْضَلِيَّةِ) بِمِقْدَارِ "التَّجَرُّدِ". التَّقْدِمَةُ مِنْ (النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ) هِيَ تَرْتِيبٌ لِدَرَجَاتِ الْفِكَاكِ مِنَ التَّعَلُّقِ. أَخْلَاقِيًّا، يُعَدُّ "الشُّحُّ" بِمَا سَيُفَارِقُ الْإِنْسَانَ حَتْمًا نَقْصاً فِي الْحِكْمَةِ، بَيْنَمَا يُعَدُّ "الْبَذْلُ الْمُسْتَقْبَلِيُّ" ذَكَاءً خُلُقِيّاً يَقِي النَّفْسَ حَسْرَةَ (الْفَوْتِ). إِنَّ خُلُقَ السَّخَاءِ هُنَا هُوَ "تَحْرِيرٌ لِلذَّاتِ" مِنَ اسْتِرْقَاقِ الْمَادَّةِ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الْمَنْهَجُ الْعِرْفَانِيُّ (شُهُودُ الْفَقْرِ وَمَقَامُ الذُّخْرِ الْحَقِيقِيِّ)

عِنْدَ أَهْلِ السُّلوكِ، النَّفْسُ وَالْأَهْلُ وَالْمَالُ هِيَ "حُجُبٌ" قَدْ تَمْنَعُ السَّالِكَ عَنْ شُهُودِ الْمُنْعِمِ. "التَّقْدِمَةُ" هِيَ عَمَلِيَّةُ (تَخْلِيَةٍ) لِأَجْلِ (التَّحْلِيَةِ)؛ أَيْ إِزَاحَةَ هَذِهِ التَّعَلُّقَاتِ لِيَصْفُوَ السِّرُّ لِلَّهِ. السَّالِكُ يَرَى أَنَّ مَا (قَدَّمَهُ) هُوَ الَّذِي "ثَبَتَ" فِي دِيوَانِ الْحَقِّ، وَمَا (تَرَكَهُ) هُوَ الَّذِي "ضَاعَ" عَنْهُ. هَذِهِ الرُّؤْيَةُ تُحَوِّلُ الْبَذْلَ إِلَى لَذَّةٍ، لِأَنَّهُ فِرَارٌ مِنَ الْفَانِي إِلَى الْبَاقِي.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: الْمَنْهَجُ الْبَيَانِيُّ (بَلَاغَةُ التَّقَابُلِ وَجَزَالَةُ الِاعْتِبَارِ)

يَتَرَابَطُ النَّصُّ بَيَانِيّاً عَبْرَ "الْمُقَابَلَةِ الشَّرْطِيَّةِ" بَيْنَ (مَا تُقَدِّمْ) وَ(مَا تُؤَخِّرْ). نَلْحَظُ اسْتِخْدَامَ لَفْظِ «ذُخْرُهُ» لِلْمُقَدَّمِ، وَهُوَ يُوحِي بِالْأَمَانِ وَالِاكْتِنَازِ لِلْحَاجَةِ، بَيْنَمَا اسْتَخْدَمَ لَفْظَ «خَيْرُهُ» لِلْمُؤَخَّرِ مَنْسُوباً لِلْغَيْرِ. هَذَا التَّقَابُلُ يُصَوِّرُ لِلْعَقْلِ مَشْهَدَ (الْقِسْمَةِ الضِّيزَى)؛ حَيْثُ يَكُونُ الْمَرْءُ هُوَ "الْحَارِسَ" لِلْمَالِ، وَغَيْرُهُ هُوَ "الْمُتَمَتِّعَ" بِهِ، مِمَّا يُحَرِّكُ غَرِيزَةَ (حُبِّ النَّفْسِ) لِتَقْدِيمِ مَصْلَحَتِهَا الْأُخْرَوِيَّةِ.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: الْفَوَائِدُ الْوُجُودِيَّةُ (ثَمَرَاتُ التَّقْدِمَةِ فِي الدَّارَيْنِ)

فَائِدَةُ التَّحَرُّرِ مِنَ الْقَلَقِ: مَنْ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ، لَمْ يَخْشَ مِمَّا أَمَامَهُ؛ فَالْمُقَدِّمُ يَسْتَقْبِلُ مَالَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، بَيْنَمَا الْمُؤَخِّرُ يُوَدِّعُ مَالَهُ وَيَسْتَقْبِلُ حِسَابَهُ.

فَائِدَةُ النُّمُوِّ الرُّوحِيِّ: التَّقْدِمَةُ مِنَ "الْأَهْلِ وَالنَّفْسِ" (بِالصَّبْرِ عَلَيْهِمْ وَتَوْجِيهِهِمْ لِلَّهِ) تُحَوِّلُ الْعَلَاقَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةَ إِلَى عِبَادَاتٍ مَحْضَةٍ تُزَكِّي الْبَاطِنَ.

فَائِدَةُ حِفْظِ الْأَثَرِ: مَا قُدِّمَ لِلَّهِ يَخْلُدُ صِيتُهُ فِي الدُّنْيَا نُوراً، وَيَكُونُ فِي الْآخِرَةِ شَفِيعاً، بِخِلَافِ "الْمَالِ الْمُؤَخَّرِ" الَّذِي يَنْقَطِعُ ذِكْرُ صَاحِبِهِ بِمُجَرَّدِ اقْتِسَامِ تَرِكَتِهِ.

سَادِساً: شَوَاهِدُ التَّصْدِيقِ (تَنْزِيلِيَّةٌ وَرِوَائِيَّةٌ مَعَ بَسْطِ الشَّرْحِ)

تَتَضَافَرُ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ لِتُؤَصِّلَ لِحَقِيقَةِ "الِانْتِقَالِ الْوُجُودِيِّ" لِلْمَالِ؛ حَيْثُ لَا يَكُونُ الْمَالُ مِلْكاً لِلْإِنْسَانِ إِلَّا إِذَا سَبَقَهُ إِلَى عَالَمِ الْبَقَاءِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

١. شَوَاهِدُ التَّنْزِيلِ (الْقَرَابَةُ مَعَ الْكِتَابِ)

الْأَصْلُ الْإِحْكَامِيُّ لِلتَّقْدِمَةِ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً» (١)؛ تُعَدُّ هَذِهِ الْآيَةُ الْبُرْهَانَ الْجَوْهَرِيَّ لِوَصِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)؛ حَيْثُ رَبَطَ الْقُرْآنُ بَيْنَ (الْفِعْلِ) فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَ(الْوِجْدَانِ) فِي عَالَمِ الْغَيْبِ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَفْقِدُ مَا بَذَلَ، بَلْ يَسْتَرِدُّهُ فِي مَرْتَبَةٍ أَعْلَى وَأَتَمَّ.

٢. الشَّوَاهِدُ الرِّوَائِيَّةُ (تَوَاتُرُ الْحِكْمَةِ فِي حَقِيقَةِ الْمِلْكِ)

نَفْيُ الْمِلْكِيَّةِ الصُّورِيَّةِ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «لَيْسَ لِلْمَرْءِ مِنْ مَالِهِ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَمَا تَرَكَ فَلَيْسَ لَهُ» (٢)؛ وَفِي هَذَا تَصْدِيقٌ لِرُؤْيَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي أَنَّ مَا يَبْقَى بَعْدَ الْمَوْتِ يَخْرُجُ عَنْ دَائِرَةِ انْتِفَاعِ الذَّاتِ لِيَكُونَ "لِغَيْرِكَ"، فَالْمِلْكُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ مَا اتَّحَدَ بِعَمَلِ السَّالِكِ.

سُلْطَانُ الِاخْتِيَارِ: رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «يَا ابْنَ آدَمَ، كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ فِي مَالِكَ» (٣)؛ وَهَذَا إِرْشَادٌ إِلَى حَقِيقَةِ "الْمُبَادَرَةِ"؛ إِذْ إِنَّ التَّصَرُّفَ فِي حَالِ الْحَيَاةِ (الِاخْتِيَارِ) يَمْنَحُ الْفِعْلَ صِفَةَ "الْقُرْبَةِ"، بَيْنَمَا تَرْكُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ (الِاضْطِرَارِ) يَجْعَلُهُ مَحْضَ تَرِكَةٍ مَادِّيَّةٍ قَدْ لَا يَنَالُ صَاحِبُهَا مِنْ نُورِهَا شَيْئاً.

تَعْرِيفُ الذُّخْرِ الْبَاقِي: رُوِيَ فِي الْأَثَرِ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ): «أَفْضَلُ الذُّخْرِ مَا قُدِّمَ» (٤)؛ حَيْثُ يُعَرِّفُ "الذُّخْرُ" بِمَعْنَاهُ الْعِرْفَانِيِّ بِأَنَّهُ مَا انْتَقَلَ مِنَ الْفَنَاءِ إِلَى الْبَقَاءِ، فَالْمَالُ الْمُقَدَّمُ لِلَّهِ هُوَ بَذْرَةٌ تُورِقُ فِي رِيَاضِ الْقُدْسِ سَبَقَتْ صَاحِبَهَا لِتَهْيِئَةِ مَقَامِهِ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: حِكْمَةُ الِاسْتِذْخَارِ وَسِيَادَةُ الرُّوحِ

يَخْلُصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الْأَفْضَلِيَّةَ فِي الْإِيمَانِ لَيْسَتْ بِكَثْرَةِ الِادِّعَاءِ، بَلْ بِصِدْقِ (التَّقْدِمَةِ). إِنَّ الْوَصِيَّةَ الْعَلَوِيَّةَ تَدْعُو الْإِنْسَانَ لِيَكُونَ ذَكِيّاً فِي تَعَامُلِهِ مَعَ "الزَّمَنِ" وَ"الْمَادَّةِ"؛ فَيُحَوِّلُ رَحِيلَهُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى "رِحْلَةٍ

لِلِقَاءِ مَا ادَّخَرَ"، لَا "فِرَاقٍ لِمَا جَمَعَ". بِهَذَا الْمَنْطِقِ، يَصِيرُ الْبَذْلُ رِبْحاً، وَالتَّمَسُّكُ خُسْرَاناً، وَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لِمَنْ جَعَلَ خَيْرَهُ أَمَامَهُ، لَا خَلْفَهُ.

الْمَصَادِرُ:

(١) سُورَةُ الْمُزَّمِّل، الْآيَةُ ٢٠.

(٢) الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٤، ص ٢١.

(٣) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، حِكْمَةُ ٢٥٤.

(٤) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٧٥، ص ١٣.

تَحْصِينُ الْمَلَكَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَفَلْسَفَةُ الِاعْتِبَارِ: دِرَاسَةٌ فِي آثَارِ الْمُصَاحَبَةِ وَانْعِكَاسِ السِّنْخِيَّةِ

«وَاحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ»
يُؤَسِّسُ مَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي هَذِهِ الْفِقْرَةِ لِـ "مَنْظُومَةٍ وِقَائِيَّةٍ" تَمَسُّ جَوْهَرَ السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ، حَيْثُ يَرْبِطُ بَيْنَ (الْمُؤَثِّرِ) وَهُوَ الصَّاحِبُ، وَبَيْنَ (الْأَثَرِ) وَهُوَ الِاعْتِبَارُ وَالسِّنْخِيَّةُ.
يَنْتَظِمُ النَّصُّ فِي مَطَالِبِ الْبَحْثِ عَبْرَ تَشْرِيحِ "عِلَّةِ التَّحْذِيرِ"، فَـ (فَيَالَةُ الرَّأْيِ) عِلَّةٌ مَعْرِفِيَّةٌ تَقْدَحُ فِي مَبْحَثِ الْعَقْلِ، وَ (نَكَارَةُ الْعَمَلِ) عِلَّةٌ عَمَلِيَّةٌ تَقْدَحُ فِي مَبْحَثِ الْأَخْلَاقِ، وَقَاعِدَةُ (الِاعْتِبَارِ) تُمَثِّلُ الْبُرْهَانَ الْفَلْسَفِيَّ عَلَى حَتْمِيَّةِ الِانْعِكَاسِ بَيْنَ الذَّوَاتِ الْمُتَصَاحِبَةِ.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: فَلْسَفِيّاً (بُرْهَانُ السِّنْخِيَّةِ وَقَانُونُ الِاعْتِبَارِ)

فَلْسَفِيّاً، الْمُصَاحَبَةُ لَيْسَتْ مُجَاوَرَةً مَادِّيَّةً مَحْضَةً، بَلْ هِيَ "تَفَاعُلٌ نَفْسَانِيٌّ" يُؤَدِّي إِلَى انْتِقَالِ الصِّفَاتِ. قَوْلُهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ» يُشِيرُ إِلَى (بُرْهَانِ الْإِنِّيِّ)؛ أَيْ أَنَّ الْعَقْلَ يَسْتَدِلُّ عَلَى صِفَاتِ "أَلِف" مِنْ خِلَالِ صِفَاتِ "بَاء" الْمُصَاحِبِ لَهُ. حَقِيقَةُ الِاعْتِبَارِ هُنَا تَعْنِي أَنَّ النَّفْسَ تَنْطَبِعُ بِصُورَةِ مَنْ تُلَافِظُ وَتُعَاشِرُ، فَيَصِيرُ الصَّاحِبُ مِرْآةً تَعْكِسُ مَاهِيَّةَ صَاحِبِهِ فِي نَظَرِ الْعُقَلَاءِ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: عِرْفَانِيّاً (سِرُّ الْمُجَانَسَةِ وَحِجَابُ الصُّحْبَةِ)

عِنْدَ أَهْلِ الْقُلُوبِ، الصُّحْبَةُ هِيَ مَزْجُ "الْأَرْوَاحِ" قَبْلَ الْأَشْبَاحِ. التَّحْذِيرُ مِنْ مَنْ «يَفِيلُ رَأْيُهُ» (أَيْ يَضْعُفُ وَيَخْطَأُ) هُوَ تَحْذِيرٌ مِنْ عَدْوَى الظُّلْمَةِ الذِّهْنِيَّةِ، لِأَنَّ السَّالِكَ يَحْتَاجُ إِلَى نُورٍ يُسَدِّدُهُ. أَمَّا مَنْ «يُنْكَرُ عَمَلُهُ» فَهُوَ ذُو سِرٍّ مُكَدَّرٍ، وَمُجَالَسَتُهُ تَعْمَلُ كَـ "حِجَابٍ" يَمْنَعُ عَنِ الْقَلْبِ صَفَاءَ التَّجَلِّي. الْعِرْفَانُ الْعَلَوِيُّ يُرِيدُ مِنَ السَّالِكِ أَنْ يَصْحَبَ مَنْ يَنْهَضُ بِكَ حَالُهُ وَيَدُلُّكَ عَلَى اللهِ مَقَالُهُ، لِأَنَّ الصُّحْبَةَ الدَّنِيَّةَ سَلْبٌ لِلْمَدَدِ الْغَيْبِيِّ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: أَخْلَاقِيّاً (مَلَكَةُ التَّحَرُّزِ وَصِيَانَةُ الْمُرُوءَةِ)

تَتَجَلَّى الْأَخْلَاقُ فِي هَذَا النَّصِّ عَبْرَ مَفْهُوم "الْوِقَايَةِ السُّلُوكِيَّةِ". فَيَالَةُ الرَّأْيِ تَعْنِي غِيَابَ الْحِكْمَةِ، وَنَكَارَةُ الْعَمَلِ تَعْنِي غِيَابَ الْعَدَالَةِ. الِارْتِبَاطُ بِأَهْلِ النَّقْصِ يُورِثُ الِاعْتِيَادَ عَلَى الْقَبِيحِ، وَهَذَا يَهْدِمُ مَلَكَةَ (الِاسْتِقْبَاحِ الْعَقْلِيِّ) لَدَى الْإِنْسَانِ. أَخْلَاقِيّاً، الْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِصِيَانَةِ عِرْضِهِ وَدِينِهِ، وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالِابْتِعَادِ عَنْ مَوَاطِنِ الرِّيَبِ، وَمَنْ صَحِبَ أَهْلَ النَّكِيْرِ صَارَ مَنْكُوراً مِثْلَهُمْ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: الْمَنْهَجُ الْبَيَانِيُّ (جَزَالَةُ اللَّفْظِ وَالنَّحْوُ الدَّلَالِيُّ)

تَنْصَبُّ الْبَلَاغَةُ الْعَلَوِيَّةُ فِي قَوْلِهِ «يَفِيلُ رَأْيُهُ» لِتُصَوِّرَ حَالَةَ التَّرَهُّلِ وَالْخَطَأِ فِي الْقُوَّةِ الْعَاقِلَةِ، بَيْنَمَا جَاءَ الْفِعْلُ «يُنْكَرُ عَمَلُهُ» مَبْنِيّاً لِلْمَجْهُولِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ النَّكَارَةَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلْعَمَلِ لَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهَا اثْنَانِ مِنَ الْعُقَلَاءِ. نَحْوِيّاً، تَعْمَلُ جُمْلَةُ «فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ...» تَعْلِيلًا مُؤَكَّداً بِـ (إِنَّ) لِتَقْرِيرِ قَاعِدَةِ الِانْعِكَاسِ فِي

نَفْسِ السَّامِعِ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ «مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ» يَحْمِلُ إِيجَازاً يُفِيدُ أَنَّ حُكْمَ النَّاسِ وَتَقْيِيمَهُمْ لِلْمَرْءِ هُوَ فَرْعٌ لِتَقْيِيمِهِمْ لِقَرِينِهِ.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: الْفَوَائِدُ الْوُجُودِيَّةُ (ثَمَرَاتُ الْحَذَرِ)

فَائِدَةُ التَّحْصِينِ الْمَعْرِفِيِّ: الْبُعْدُ عَنْ ضِعَافِ الرَّأْيِ يَحْمِي الْعَقْلَ مِنَ التَّسَلُّلِ الشُّبُهَاتِيِّ.
فَائِدَةُ السَّلَامَةِ الِاعْتِبَارِيَّةِ: حِفْظُ سُمْعَةِ الْمُؤْمِنِ فِي الْمُجْتَمَعِ عَبْرَ صُحْبَةِ مَنْ يُزِينُهُ وَلَا يَشِينُهُ.
فَائِدَةُ التَّكَامُلِ السُّلُوكِيِّ: الصُّحْبَةُ الصَّالِحَةُ تَعْمَلُ كَـ "مُحَفِّزٍ" لِلْمَلَكَاتِ الْفَاضِلَةِ عَبْرَ الْمُحَاكَاةِ.

سَادِساً: شَوَاهِدُ التَّصْدِيقِ (تَنْزِيلِيَّةٌ وَرِوَائِيَّةٌ)

تَتَضَافَرُ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ "الصُّحْبَةَ" لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مُجَاوَرَةٍ بَدَنِيَّةٍ، بَلْ هِيَ (امْتِزَاجٌ رُوحِيٌّ) وَتَوْحِيدٌ فِي الْمَصِيرِ الْوُجُودِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ:
١. الشَّوَاهِدُ الْقُرْآنِيَّةُ (مَآلُ التَّبَعِيَّةِ وَحَسْرَةُ الِانْعِكَاسِ)
الْمَصِيرُ الْهَلَاكِيُّ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً» (١)؛ تُصَوِّرُ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي عُمْقِهَا الْفَلْسَفِيِّ قَانُونَ (سِرَايَةِ الْأَثَرِ)؛ حَيْثُ تَتَحَوَّلُ الصُّحْبَةُ الْمَنْكُورَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ إِلَى حَسْرَةٍ وُجُودِيَّةٍ، وَهُوَ تَصْدِيقٌ لِتَحْذِيرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مِنْ أَنَّ الصَّاحِبَ شَرِيكٌ فِي الْمَصِيرِ جَزَاءً وَاعْتِبَاراً، فَالنَّفْسُ تَنْطَبِعُ بِصُورَةِ مَنْ تُجَالِسُ.
٢. الشَّوَاهِدُ الرِّوَائِيَّةُ (مِيزَانُ الِاعْتِبَارِ وَانْعِكَاسُ الْبَصِيرَةِ)
سَلْبُ الْوَجَاهَةِ الْإِيمَانِيَّةِ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «لَا تَصْحَبُوا أَهْلَ الْبِدَعِ وَلَا تُجَالِسُوهُمْ فَتَصِيرُوا عِنْدَ النَّاسِ كَأَحَدِهِمْ» (٢)؛ يُطَابِقُ هَذَا النَّصُّ قَاعِدَةَ "الِاعْتِبَارِ" الَّتِي أَسَّسَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)؛ حَيْثُ يَنْتَقِلُ الْحُكْمُ مِنَ الْمَتْبُوعِ إِلَى التَّابِعِ فِي أَنْظَارِ النَّاسِ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ سُوءَ الِاخْتِيَارِ فِي الصُّحْبَةِ يَهْدِمُ كِيَانَ الْإِنْسَانِ الِاعْتِبَارِيَّ وَإِنْ لَمْ يَعْتَقِدْ بِمُعْتَقَدِهِمْ.
الِانْعِكَاسُ فِي الرُّتْبَةِ الدِّينِيَّةِ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» (٣)؛ يُعَضِّدُ هَذَا الْقَوْلُ النَّبَوِيُّ فِكْرَةَ (الِانْصِهَارِ الْمَعْرِفِيِّ)؛ فَالصُّحْبَةُ تَنْفُذُ إِلَى أَعْمَاقِ "الدِّينِ"، وَهُوَ مَا حَذَّرَ مِنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بِقَوْلِهِ "يَفِيلُ رَأْيُهُ"؛ أَيْ أَنَّ رَأْيَ الصَّاحِبِ يَضْعُفُ بِضَعْفِ رَأْيِ قَرِينِهِ.
تَشْوِيهُ النَّقَاءِ الْوُجُودِيِّ: عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «مُجَالَسَةُ الْأَشْرَارِ تُورِثُ السُّوءَ بِالْأَخْيَارِ» (٤)؛ يُبَيِّنُ هَذَا الشَّاهِدُ أَنَّ الضَّرَرَ الِاعْتِبَارِيَّ لِلصُّحْبَةِ السَّيِّئَةِ يَمْتَدُّ لِيُشَوِّهَ صَفَاءَ الصَّالِحِينَ، فَمُجَرَّدُ الِانْتِسَابِ إِلَى أَهْلِ النَّكَارَةِ يُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ، لِأَنَّ "الظَّاهِرَ" عُنْوَانُ "الْبَاطِنِ" فِي عُرْفِ الْعُقَلَاءِ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: وِحْدَةُ الْفِكْرَةِ وَمَصِيرُ الِانْعِكَاسِ

يَلْخَصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ التَّحْذِيرَ الْعَلَوِيَّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) هُوَ تَقْرِيرٌ لِقَانُونٍ وُجُودِيٍّ شَامِلٍ؛ فَالذَّاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ قَابِلَةٌ لِلِانْطِبَاعِ، وَالصُّحْبَةُ هِيَ مَجَالُ هَذَا التَّأْثِيرِ. إِنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ "فَيَالَةِ الرَّأْيِ" وَ"نَكَارَةِ الْعَمَلِ" تُمَثِّلُ مَنْظُومَةَ الْخَلَلِ الَّتِي يَجِبُ الِاحْتِرَازُ مِنْهَا لِحِفْظِ الِاسْتِقَامَةِ الذَّاتِيَّةِ وَالصُّورَةِ الِاعْتِبَارِيَّةِ. فَمَنْ جَعَلَ بَصِيرَتَهُ مِيزَاناً فِي اخْتِيَارِ أَقْرَانِهِ، نَجَا مِنْ تَبِعَاتِ الِاعْتِبَارِ السَّيِّئِ، وَارْتَقَى بِسِنْخِيَّتِهِ إِلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ.
الْمَصَادِرُ:

(١) سُورَةُ الْفُرْقَان، الْآيَتَانِ ٢٧-٢٨.
(٢) الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٢، ص ٣٧٥.
(٣) وَسَائِلُ الشِّيعَةِ، ج ١٢، ص ٩.
(٤) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٧١، ص ١٩٧.

جُغْرَافِيَا الْوُجُودِ وَأَثَرُ الْبِيئَةِ فِي التَّكَامُلِ: دِرَاسَةٌ فِي رُتْبَةِ السَّكَنِ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ مَوَاطِنِ الْجَفَاءِ

«وَاسْكُنِ الْأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ وَقِلَّةَ الْأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ»

يُؤَصِّلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي هَذَا الْمَقْطَعِ لِقَاعِدَةٍ فِي "تَدْبِيرِ الْمَنَازِلِ" تَمَسُّ جَوْهَرَ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ؛ حَيْثُ يَنْقُلُ مَفْهُومَ (السَّكَنِ) مِنْ حَيِّزِ الْأَيْنِ الْمَادِّيِّ إِلَى حَيِّزِ الِاسْتِكْمَالِ الرُّوحِيِّ. يَنْتَظِمُ النَّصُّ فِي مَطَالِبِ الْبَحْثِ عَبْرَ تَفْكِيكِ حَقِيقَةِ (الْوَحْدَةِ) وَ(الْكَثْرَةِ)؛ فَـ (الْأَمْصَارُ الْعِظَامُ) تَرْتَبِطُ بِمَبْحَثِ تَعَاضُدِ الْوُجُودَاتِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَ (مَنَازِلُ الْغَفْلَةِ) تُعَالِجُ مَبْحَثَ الْعَوَائِقِ الْإِمْكَانِيَّةِ الَّتِي تَقْطَعُ طَرِيقَ النَّفْسِ، بَيْنَمَا تُمَثِّلُ (قِلَّةُ الْأَعْوَانِ) الِانْفِرَادَ الَّذِي يُعَطِّلُ الْقُوَّةَ الْعَمَلِيَّةَ عَنِ الطَّاعَةِ.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: فَلْسَفِيّاً (تَجَاوُرُ الذَّوَاتِ وَتَضَافُرُ الْقُوَى)

النَّفْسُ فِي مَقَامِ اسْتِكْمَالِهَا تَتَأَثَّرُ بِالْمُحِيطِ تَأَثُّرَ الْقَابِلِ بِالْفَاعِلِ. قَوْلُهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ» يُشِيرُ إِلَى مَبْدَأِ "تَعَاضُدِ الْفُصُولِ"؛ حَيْثُ يَخْلُقُ الِاجْتِمَاعُ الْإِيمَانِيُّ فِي الْحَوَاضِرِ الْكُبْرَى فِعْلِيَّةً جَمَاعِيَّةً تَحْمِي الْفَرْدَ مِنَ الْقُوَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ. الِاسْتِيطَانُ فِي مَرَاكِزِ الْحَقِّ يَجْعَلُ النَّفْسَ الْجُزْئِيَّةَ تَرْتَقِي بِمَدَدِ النَّفْسِ الْكُلِّيَّةِ لِلْجَمَاعَةِ، مِمَّا يُقَلِّلُ مِنَ الْعَوَائِقِ الطَّبِيعِيَّةِ، بِخِلَافِ الْبِقَاعِ الْمُنْعَزِلَةِ الَّتِي يَضْعُفُ فِيهَا الْوُجُودُ الرَّابِطُ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: عِرْفَانِيّاً (مَقَامُ الْأُنْسِ وَالْفِرَارِ مِنْ حِجَابِ الْوَحْشَةِ)

عِنْدَ أَهْلِ السُّلوكِ، السَّكَنُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ "تَمَكُّنُ السِّرِّ". التَّحْذِيرُ مِنْ «مَنَازِلِ الْغَفْلَةِ» هُوَ تَحْذِيرٌ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُعْدِ الَّتِي لَا تَتَجَلَّى فِيهَا أَنْوَارُ الذِّكْرِ، حَيْثُ تَنْعَدِمُ الْمُنَاسَبَةُ الرُّوحِيَّةُ بَيْنَ الْمُرِيدِ وَالْمُرَادِ. السَّالِكُ يَهْرُبُ مِنَ «الْجَفَاءِ» لِأَنَّهُ يَعْنِي قَسَاوَةَ الْقَلْبِ وَانْقِطَاعَ الْفُيُوضَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ. الْعِرْفَانُ الْعَلَوِيُّ يَعْتَبِرُ الْأَمْصَارَ مَظْهَراً لِلِاجْتِمَاعِ عَلَى "الْحَقِّ"، مِمَّا يُزِيلُ حِجَابَ الِاسْتِيحَاشِ وَيُسَرِّعُ فِي حَرَكَةِ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ عَبْرَ الِانْخِرَاطِ فِي سِلْكِ الْعُبَّادِ.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: أَخْلَاقِيّاً (مَلَكَةُ التَّعَاوُنِ وَمُقَاوَمَةُ الِاسْتِفْرَادِ الْبَهِيمِيِّ)

تَتَجَلَّى الْأَخْلَاقُ فِي هَذَا الْمَقْطَعِ عَبْرَ تَأْصِيلِ "الْمُعَاضَدَةِ الْوُجُودِيَّةِ". قَوْلُهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «قِلَّةَ الْأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ» يُصَوِّرُ الْفَقْرَ الْأَخْلَاقِيَّ فِي الْعُزْلَةِ؛ فَالْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ، وَإِذَا خَلَا مِنَ الْمُعِينِ الْمُرْشِدِ، اسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِ الْقُوَّةُ الْوَهْمِيَّةُ. أَخْلَاقِيّاً، الصَّبْرُ عَلَى الْمَكَارِهِ يَحْتَاجُ إِلَى مُشَاكَلَةٍ لِلصَّالِحِينَ، وَهِيَ مَفْقُودَةٌ فِي مَنَازِلِ الْجَفَاءِ. لِذَلِكَ كَانَ الِانْتِقَالُ لِلْحَوَاضِرِ وَسِيلَةً لِتَحْقِيقِ خُلُقِ التَّوَاصِي، الَّذِي هُوَ عِمَادُ الِاسْتِقَامَةِ.

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: الْمَنْهَجُ الْبَيَانِيُّ (بَلَاغَةُ الْأَمْرِ وَالنَّحْوُ الدَّلَالِيُّ)

تَتْبَلِجُ الْبَلَاغَةُ الْعَلَوِيَّةُ فِي قَوْلِهِ «جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ»، وَهُوَ لَفْظٌ يُفِيدُ الِاحْتِوَاءَ وَالِانْضِمَامَ، وَكَأَنَّ الْأَمْصَارَ وِعَاءٌ لِحِفْظِ الْجَوْهَرِ الْإِيمَانِيِّ مِنَ التَّبَدُّدِ. أَمَّا «مَنَازِلُ الْغَفْلَةِ» فَقَدْ أُضِيفَتْ فِيهَا الْأَمْكِنَةُ إِلَى صِفَاتِ النَّفْسِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شِدَّةِ الِارْتِبَاطِ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ. نَحْوِيّاً، فِعْلُ الْأَمْرِ «اسْكُنْ» يُفِيدُ الْإِرْشَادَ الْوُجُوبِيَّ لِمَا فِيهِ صَلَاحُ النَّشْأَتَيْنِ، وَالْعَطْفُ فِي «الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ» هُوَ عَطْفُ تَلَازُمٍ؛ إِذْ لَا يَكُونُ الْجَفَاءُ إِلَّا ثَمَرَةً لِغَفْلَةِ الْقَلْبِ عَنِ الْمَبْدَإِ وَالْمَعَادِ.

الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ: الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ وَالرِّوَائِيَّةُ

تَتَضَافَرُ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ لِتُؤَصِّلَ لِمَفْهُومِ "الْبِيئَةِ الْحَاضِنَةِ" لِلرُّوحِ؛ حَيْثُ لَا يَنْفَكُّ صَلَاحُ الْبَاطِنِ عَنْ جَوْدَةِ الْمُحِيطِ الْمَكَانِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ، وَبَيَانُ ذَلِكَ:

١. الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ (أَدَبُ الْمُلَازَمَةِ وَنَفْيُ الِانْفِرَادِ)

الْمُلَازَمَةُ الْوُجُودِيَّةُ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» (١)؛ تَأْمُرُ هَذِهِ الْآيَةُ بِقَهْرِ النَّفْسِ عَلَى الِانْتِظَامِ فِي سِلْكِ "جَمَاعَةِ الذَّاكِرِينَ"؛ فَالسَّكَنُ فِي مَوَاطِنِ الطَّاعَةِ يَعْمَلُ كَحِصْنٍ يَدْفَعُ غَسَقَ الْغَفْلَةِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْقَلْبِ حَالَ انْفِرَادِهِ عَنْ مَدَدِ الْإِخْوَانِ، وَهُوَ عَيْنُ مَا قَصَدَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بِضَرُورَةِ الِانْتِمَاءِ لِلْحَوَاضِرِ الْإِيمَانِيَّةِ.

٢. الِاعْتِبَارُ بِالسُّنَّةِ الرِّوَائِيَّةِ (قُدْسِيَّةُ الْجِمَاعِ وَنَفْيُ الْجَفَاءِ)

مَرْكَزِيَّةُ مَظَاهِرِ التَّقْدِيسِ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «عَلَيْكُمْ بِالْمَسَاجِدِ، فَإِنَّهَا بُيُوتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ» (٢)؛ يُعَدُّ هَذَا النَّصُّ بُرْهَاناً عَلَى أَنَّ "الْجِمَاعَ" الْحَقِيقِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ يَتَحَقَّقُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَرَاكِزِ الْإِلَهِيَّةِ؛ فَالسَّكَنُ حَوْلَ الْمَسَاجِدِ فِي الْأَمْصَارِ الْعِظَامِ يَنْفِي عَنِ الرُّوحِ جَفَاءَ الْبُعْدِ عَنْ مَوَاقِعِ النُّورِ وَالْمَعْرِفَةِ.

الْمَعِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي الْكَثْرَةِ الصَّالِحَةِ: رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «وَالْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ» (٣)؛ يُشِيرُ هَذَا الشَّاهِدُ إِلَى مَطْلَبِ الِانْتِظَامِ فِي الْحَوَاضِرِ الْكُبْرَى (السَّوَادِ الْأَعْظَمِ)؛ حَيْثُ تَتَنَزَّلُ الرَّحَمَاتُ عَلَى الْمَجْمُوعِ، وَيَكُونُ الِاعْتِصَامُ بِهِمْ حِرْزاً مِنَ الِاغْتِيَالِ الشَّيْطَانِيِّ الَّذِي يَتَرَبَّصُ بِأَهْلِ مَنَازِلِ الْعُزْلَةِ وَالْغَفْلَةِ.

الْجَفَاءُ الْمَكَانِيُّ وَغِلْظَةُ الْجَوْهَرِ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «مَنْ تَبَدَّى جَفَا» (٤)؛ يُعَالِجُ هَذَا الْخَبَرُ النَّبَوِيُّ مَاهِيَّةَ (التَّبَدِّي)—وَهُوَ السَّكَنُ فِي الْبَوَادِي الْمُنْعَزِلَةِ—بِوَصْفِهِ سَبَباً فِي تَحَجُّرِ الطَّبْعِ وَبُعْدِهِ عَنْ رِقَّةِ الْعِلْمِ؛ مِمَّا يُعَزِّزُ تَحْذِيرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مِنَ السَّكَنِ فِي مَوَاضِعِ النَّكَارَةِ صِيَانَةً لِشَفَافِيَّةِ الْإِيمَانِ.

الْمَبْحَثُ السَّادِسُ: الْفَوَائِدُ الْمُتَرَتِّبَةُ عَلَى رُتْبَةِ السَّكَنِ وَالتَّحَرُّزِ

فَائِدَةُ التَّعَاضُدِ الْوُجُودِيِّ: إِنَّ السَّكَنَ فِي جِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ يُفِيدُ فِي "تَقْوِيَةِ الْقَابِلِ"، حَيْثُ تَمُدُّ النُّفُوسُ الْمُجْتَمِعَةُ بَعْضَهَا بَعْضاً بِالْمَلَكَاتِ الْفَاضِلَةِ، مِمَّا يَجْعَلُ طَرِيقَ الطَّاعَةِ أَيْسَرَ مَنَالاً بِفِعْلِ "الْمُشَاكَلَةِ" لِأَهْلِ الْخَيْرِ.

فَائِدَةُ الِانْزِجَارِ عَنِ الْقُوَّةِ الْوَهْمِيَّةِ: التَّحَرُّزُ مِنْ مَنَازِلِ الْغَفْلَةِ يُبْعِدُ النَّفْسَ عَنْ مَثَارَاتِ الْوَهْمِ الَّتِي تَنْمُو فِي الْعُزْلَةِ عَنِ الذِّكْرِ، فَتَنْقَمِعُ الْخَوَاطِرُ الرَّدِيئَةُ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْمُنْفَرِدِ عَنْ مَحَاضِرِ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ.

فَائِدَةُ صِيَانَةِ الْجَوْهَرِ مِنَ الْجَفَاءِ: مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا التَّدْبِيرِ الِارْتِقَاءُ بِالنَّفْسِ مِنْ "رُتْبَةِ الْجَفَاءِ" (الْقَسَاوَةِ وَالْبُعْدِ) إِلَى "رُتْبَةِ الرِّقَّةِ وَالْأُنْسِ"؛ لِأَنَّ مُجَاوَرَةَ مَظَاهِرِ الطَّاعَةِ تُوَلِّدُ فِي الْقَلْبِ لِينًا يَقْبَلُ مَعَهُ الْفُيُوضَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ بِسُهُولَةٍ.
فَائِدَةُ الِاعْتِصَامِ بِالْجَمَاعَةِ مِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ: يُشَكِّلُ الِاجْتِمَاعُ فِي الْأَمْصَارِ الْعِظَامِ "حِصْناً وُجُودِيّاً" يَمْنَعُ الِاسْتِفْرَادَ الشَّيْطَانِيَّ؛ فَإِنَّ الذِّئْبَ لَا يَقْصِدُ إِلَّا الْقَاصِيَةَ مِنَ الْغَنَمِ، وَكَذَلِكَ النَّفْسُ، فَإِنَّ حُضُورَهَا مَعَ الْأَعْوَانِ يَزِيدُ مِنْ مَنَاعَتِهَا ضِدَّ الْفِتَنِ.
فَائِدَةُ التَّكَامُلِ بِالْمُعَاضَدَةِ (الْأَعْوَانِ): إِنَّ وُجُودَ "الْأَعْوَانِ عَلَى الطَّاعَةِ" يُحَوِّلُ النَّفْسَ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ فِي أَقْصَرِ زَمَنٍ؛ حَيْثُ تَعْمَلُ الْقُدْوَةُ وَالْمُؤَازَرَةُ كَـ "مُتَمِّمٍ لِلْفِعْلِ"، فَيَصِيرُ التَّكَامُلُ الرُّوحِيُّ حَرَكَةً جَمَاعِيَّةً نَحْوَ الْمَبْدَإِ الْأَعْلَى.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: وِحْدَةُ الْمَقْصَدِ فِي جُغْرَافِيَا الِاسْتِكْمَالِ

يَلْخَصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ الْعَلَوِيَّةَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) تَرْسُمُ مَعَالِمَ "الْأَمْنِ الرُّوحِيِّ" لِلنَّفْسِ، حَيْثُ لَا يَنْفَصِلُ الْمَكَانُ عَنْ قَابِلِيَّةِ الِارْتِقَاءِ. إِنَّ السَّكَنَ فِي الْأَمْصَارِ ضَرُورَةٌ لِتَحْقِيقِ الِاتِّصَالِ بِمَظَاهِرِ الطَّاعَةِ وَالتَّحَرُّزِ مِنَ الْغَفْلَةِ. فَالْحَكِيمُ مَنْ يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ بِيئَةً تُعِينُ قُوَّتَهُ الْعَمَلِيَّةَ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ، لِيَكُونَ دَائِماً فِي مَحْضَرِ الْحَقِّ، بَعِيداً عَنْ وَحْشَةِ الِانْفِرَادِ وَكُدُورَاتِ الْجَفَاءِ.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ الْكَهْف، الْآيَةُ ٢٨.
(٢) الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٣، ص ٢٧٢.
(٣) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، الْخُطْبَةُ ١٢٧.
(٤) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٧٢، ص ٢٥٣.

تَدْبِيرُ الْقُوَّةِ الْفِكْرِيَّةِ وَمَقَامَاتُ الشُّكْرِ الْعَيْنِيِّ: دِرَاسَةٌ فِي حِفْظِ الِانْتِبَاهِ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ مَثَارَاتِ الْفِتْنَةِ

«وَاقْصُرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ، وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ وَمَعَارِيضُ الْفِتَنِ. وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ»
يَسِيرُ مَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي هَذَا الْمَقْطَعِ نَحْوَ تَحْقِيقِ "التَّجْرِيدِ الْعَمَلِيِّ" لِلْمُؤْمِنِ؛ حَيْثُ يَرْبِطُ بَيْنَ الِانْكِفَاءِ الذِّهْنِيِّ وَبَيْنَ السَّلَامَةِ الْقَلْبِيَّةِ. يَنْتَظِمُ النَّصُّ فِي مَطَالِبِ الْبَحْثِ عَبْرَ ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ: (قَصْرُ الرَّأْيِ) وَهُوَ يَتَعَلَّقُ بِمَبْحَثِ حِفْظِ الْقُوَّةِ الْعَاقِلَةِ مِنَ التَّبَدُّدِ، وَ (التَّحْذِيرُ مِنَ الْأَسْوَاقِ) وَهُوَ يَعْنِي الِاحْتِرَازَ مِنْ مَوَاطِنِ غَلَبَةِ الْقُوَّةِ الشَّهْوِيَّةِ وَالْوَهْمِيَّةِ، وَ (النَّظَرُ إِلَى مَنْ دُونَكَ) لِتَحْقِيقِ مَلَكَةِ الشُّكْرِ الَّتِي هِيَ غَايَةُ الْكَمَالِ الْخُلُقِيِّ.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: فَلْسَفِيّاً (حِفْظُ الْوِحْدَةِ الذِّهْنِيَّةِ وَتَجَنُّبُ التَّشَتُّتِ)

النَّفْسُ إِذَا تَوَزَّعَتْ هِمَّتُهَا فِي "مَا لَا يَعْنِيهَا"، ضَعُفَتْ قُوَّتُهَا عَنْ إِدْرَاكِ "مَا يَعْنِيهَا". قَوْلُهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «وَاقْصُرْ رَأْيَكَ» دَعْوَةٌ لِحِفْظِ وِحْدَةِ النَّفْسِ مِنَ التَّكَثُّرِ فِي فُضُولِ الْعِلْمِ وَالْخَبَرِ. فَالرَّأْيُ طَاقَةٌ وُجُودِيَّةٌ، وَصَرْفُهَا فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا يُعَدُّ هَدْراً لِلْكَمَالِ الْأَوَّلِ لِلنَّفْسِ، مِمَّا يُعَطِّلُ حَرَكَةَ الْجَوْهَرِ نَحْوَ غَايَتِهِ الْقُصْوَى.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: عِرْفَانِيّاً (حِجَابُ الْغَفْلَةِ وَتَلْبِيسُ الشَّيْطَانِ فِي الْمَحَاضِرِ)

عِنْدَ أَهْلِ السُّلوكِ، الْأَسْوَاقُ تُمَثِّلُ رَمْزِيَّةً لِـ "دَارِ الْغُرُورِ" حَيْثُ يَتَجَلَّى التَّكَاثُرُ وَالتَّفَاخُرُ. التَّحْذِيرُ مِنْ «مَقَاعِدِ الْأَسْوَاقِ» هُوَ تَحْذِيرٌ مِنَ الِانْخِرَاطِ فِي "الْهَبَاءِ الْبَشَرِيِّ" الَّذِي يَقْطَعُ حُضُورَ الْقَلْبِ مَعَ اللَّهِ.
وُصِفَتْ بِأَنَّهَا «مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ» لِأَنَّهَا تَقُومُ عَلَى الْغَفْلَةِ، وَالسَّالِكُ مَأْمُورٌ بِالْحُضُورِ فِي مَحَاضِرِ الْقُدْسِ. أَمَّا «مَعَارِيضُ الْفِتَنِ» فَهِيَ الشِّبَاكُ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْعَيْنِ وَالْأُذُنِ فَتَشْغَلُ السِّرَّ عَنِ الْمُشَاهَدَةِ الْحَقَّةِ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: أَخْلَاقِيّاً (مَلَكَةُ الْقَنَاعَةِ وَطَرِيقُ الِاسْتِكْمَالِ بِالشُّكْرِ)

تَتَجَلَّى الْأَخْلَاقُ فِي هَذَا الْمَقْطَعِ عَبْرَ عِلَاجِ الْحَسَدِ وَتَحْصِيلِ الرِّضَا. قَوْلُهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «انْظُرْ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ» هُوَ مَنْهَجٌ تَرْبَوِيٌّ لِقَمْعِ الطَّمَعِ وَالْجُحُودِ. أَخْلَاقِيّاً، النَّظَرُ إِلَى مَنْ هُوَ أَعْلَى فِي أُمُورِ الدُّنْيَا يُورِثُ ازْدِرَاءً لِنِعْمَةِ اللَّهِ، بَيْنَمَا النَّظَرُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكَ يُفَتِّحُ «أَبْوَابَ الشُّكْرِ»؛ وَالشُّكْرُ لَيْسَ مُجَرَّدَ لَفْظٍ، بَلْ هُوَ حَالٌ تَتَمَكَّنُ فِيهِ النَّفْسُ مِنْ مَقَامِ الرِّضَا بِالْمَقْسُومِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: الْمَنْهَجُ الْبَيَانِيُّ (بَلَاغَةُ الْقَصْرِ وَجَزَالَةُ الِاسْتِعَارَةِ)

تَنْبَلِجُ الْبَلَاغَةُ الْعَلَوِيَّةُ فِي قَوْلِهِ «اقْصُرْ رَأْيَكَ»، وَهِيَ اسْتِعَارَةٌ تُصَوِّرُ الرَّأْيَ كَالظِّلِّ الَّذِي يَجِبُ أَلَّا يَتَجَاوَزَ مِسَاحَةً مَحْدُودَةً، تَوْفِيراً لِلْجُهْدِ الْعَقْلِيِّ. أَمَّا «مَحَاضِرُ وَمَعَارِيضُ» فَجَمْعٌ يُفِيدُ الِاسْتِغْرَاقَ فِي مَكَايِدِ

الشَّيْطَانِ. نَحْوِيّاً، جَاءَ التَّحْذِيرُ بِـ (إِيَّاكَ) لِتَهْوِيلِ أَمْرِ الْجُلُوسِ فِي مَوَاطِنِ الْغَفْلَةِ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ «فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ» تَعْمَلُ كَقَاعِدَةٍ بُرْهَانِيَّةٍ تَرْبِطُ بَيْنَ الْفِعْلِ الْبَصَرِيِّ وَالْأَثَرِ الْقَلْبِيِّ.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ وَالرِّوَائِيَّةُ

تَتَضَافَرُ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ "سَلَامَةَ الْقَلْبِ" مَرْهُونَةٌ بِكَبْحِ جِمَاحِ النَّظَرِ عَنِ الزُّخْرُفِ الزَّائِلِ، وَتَوْجِيهِ الْبَصِيرَةِ نَحْوَ الْحَقَائِقِ الْبَاقِيَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

١. الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ (بُرْهَانُ الصَّرْفِ عَنِ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ)

النَّهْيُ عَنِ التَّطَلُّعِ الْفِتْنِيِّ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ» (١)؛ يُعَدُّ هَذَا النَّصُّ الْأَصْلَ الْوُجُودِيَّ لِوَصِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي حُرْمَةِ الِارْتِهَانِ لِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ؛ فَالنَّظَرُ "الْمَمْدُودُ" لِلْمَادَّةِ يُورِثُ شَتَاتَ الرُّوحِ، بَيْنَمَا النَّظَرُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكَ يَعْمَلُ كَحِجَابٍ يَقِي الْقَلْبَ مِنَ الِاحْتِرَاقِ بِنَارِ الْحَسْرَةِ.

٢. الشَّوَاهِدُ الرِّوَائِيَّةُ (تَحْقِيقُ الْقَنَاعَةِ وَحِمَايَةُ الْجَوْهَرِ)

التَّحْذِيرُ مِنْ مَحَاضِرِ الْغَفْلَةِ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «شَرُّ الْبِقَاعِ الْأَسْوَاقُ، وَهِيَ مَيْدَانُ إِبْلِيسَ» (٢)؛ يُعَضِّدُ هَذَا الْخَبَرُ وَصْفَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لِلْأَسْوَاقِ بِأَنَّهَا "مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ"؛ حَيْثُ تَتَكَاثَفُ فِيهَا حُجُبُ الْمَادَّةِ وَيَشِيعُ ذُهُولُ النَّفْسِ عَنِ الذِّكْرِ، مِمَّا يَجْعَلُ الِاعْتِبَارَ هُنَا بِالْحَذَرِ مِنَ الْبِيئَةِ الَّتِي تَمْحَقُ الرِّقَّةَ الْإِيمَانِيَّةَ.

رِيَاضَةُ النَّظَرِ وَسُكُونُ الرِّضَا: عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «انْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكَ فِي الْمَقْدُرَةِ... فَإِنَّ ذَلِكَ أَقْنَعُ لَكَ بِمَا قُسِمَ لَكَ» (٣)؛ يُفَصِّلُ هَذَا الشَّاهِدُ مَنْطِقَ (الْمُقَايَسَةِ الْعَكْسِيَّةِ) الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الْإِمَامُ؛ حَيْثُ يَتَحَوَّلُ النَّظَرُ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ إِلَى جِسْرٍ لِمَقَامِ الشُّكْرِ، وَتَحْصِيلِ مَلَكَةِ الْقَنَاعَةِ الَّتِي هِيَ "كَنْزٌ لَا يَنْفَدُ".

قَصْرُ الرَّأْيِ وَصِيَانَةُ الطَّاقَةِ: عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «مَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ، فَاتَهُ مَا يَعْنِيهِ» (٤)؛ يُصَدِّقُ هَذَا الشَّاهِدُ مَطْلَبَ الِانْكِفَاءِ عَنِ الْفُضُولِ؛ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الطَّاقَةَ النَّفْسَانِيَّةَ مَحْدُودَةٌ، وَأَنَّ تَبْدِيدَهَا فِي الِاهْتِمَامِ بِشُؤُونِ الْخَلْقِ وَدُنْيَاهُمْ يَعْنِي ضَيَاعَ الْحَظِّ الْأَوْفَرِ مِنَ الِاشْتِغَالِ بِالْمَعَادِ وَتَزْكِيَةِ الذَّاتِ.

الْمَطْلَبُ السَّادِسُ: الْفَوَائِدُ الْمُتَرَتِّبَةُ وَالثَّمَرَاتُ الْقُدْسِيَّةُ

بَعْدَ تَنْقِيحِ الْمَبَاحِثِ السَّابِقَةِ، يَتَحَصَّلُ لَدَيْنَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْفَوَائِدِ الَّتِي تَعُودُ عَلَى النَّفْسِ بِالِاسْتِكْمَالِ:

فَائِدَةُ التَّجْرِيدِ الْمَعْرِفِيِّ: قَصْرُ الرَّأْيِ يَحْفَظُ الْقُوَّةَ الْعَاقِلَةَ مِنَ التَّبَدُّدِ، مِمَّا يُهَيِّئُ النَّفْسَ لِتَلَقِّي الْإِشْرَاقَاتِ الْإِلَهِيَّةِ دُونَ شَوَاغِلَ.

فَائِدَةُ تَحْصِينِ الْخَيَالِ: التَّحَرُّزُ مِنَ الْأَسْوَاقِ يَمْنَعُ ارْتِسَامَ الصُّوَرِ الْقَبِيحَةِ وَالْفِتَنِ فِي لَوْحِ النَّفْسِ، فَيَبْقَى السِّرُّ نَقِيّاً.

فَائِدَةُ الِاسْتِقْرَارِ النَّفْسَانِيِّ: النَّظَرُ إِلَى مَنْ دُونَكَ يَكْسِرُ سَوْرَةَ الْقُوَّةِ الشَّهْوِيَّةِ وَيُطْفِئُ نَارَ الْحَسَدِ، مِمَّا يُورِثُ طُمَأْنِينَةً وُجُودِيَّةً.

فَائِدَةُ التَّرَقِّي فِي مَقَامِ الشُّكُورِ: تَحَقُّقُ الزِّيَادَةِ الْوُجُودِيَّةِ بِمُقْتَضَى الْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ».

فَائِدَةُ تَدْبِيرِ الْعُمُرِ: صَرْفُ أَنْفَاسِ الْإِنْسَانِ فِيمَا يَبْقَى لَهُ فِي نَشْأَتِهِ الْآخِرَةِ بَدَلًا مِنَ الْفُضُولِ الزَّائِلِ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: وِحْدَةُ الْقَصْدِ فِي حِفْظِ الْجَوَانِحِ وَالْجَوارِحِ

يَلْخَصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ التَّوْصِيَاتِ الْعَلَوِيَّةَ تُشَكِّلُ حِصْناً وُجُودِيّاً لِلْمُؤْمِنِ؛ فَقَصْرُ الرَّأْيِ يَحْفَظُ "النُّورَ الذِّهْنِيَّ"، وَهَجْرُ مَقَاعِدِ الْأَسْوَاقِ يَحْفَظُ "الطَّهَارَةَ الْقَلْبِيَّةَ"، وَالنَّظَرُ إِلَى مَنْ دُونَكَ يَحْفَظُ "الِاعْتِدَالَ النَّفْسَانِيَّ". إِنَّ اجْتِمَاعَ هَذَا كُلِّهِ يُؤَدِّي إِلَى انْفِتَاحِ أَبْوَابِ الشُّكْرِ الْحَقِيقِيِّ.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ طه، الْآيَةُ ١٣١.
(٢) الثِّقَةُ الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٥، ص ١٤٨.
(٣) الْحُرُّ الْعَامِلِيُّ، وَسَائِلُ الشِّيعَةِ، ج ١٦، ص ٢٢.
(٤) الْعَلَّامَةُ الْمَجْلِسِيُّ، بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٧١، ص ٢٧١.

تَدْبِيرُ الِانْضِبَاطِ الزَّمَانِيِّ وَقُدْسِيَّةُ التَّوَجُّهِ: دِرَاسَةٌ فِي أَدَبِ السَّفَرِ وَتَعْظِيمِ الْجُمُعَةِ

«وَلَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إِلَّا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ»
يُمَثِّلُ هَذَا التَّوْجِيهُ الْعَلَوِيُّ قَاعِدَةً كُلِّيَّةً فِي تَدْبِيرِ الِاتِّصَالِ بَيْنَ "الْعَالَمِ الزَّمَانِيِّ" وَ"الْعَالَمِ الْمَلَكُوتِيِّ"؛ حَيْثُ يَرْتَقِي بِمَفْهُومِ (الشُّهُودِ) لِيَجْعَلَهُ شَرْطاً لِصِحَّةِ التَّوَجُّهِ فِي آفَاقِ الْأَرْضِ. فَالْأَمْرُ بِتَأْخِيرِ الرَّحِيلِ لِحِينِ انْقِضَاءِ الصَّلَاةِ لَيْسَ مُجَرَّدَ حُكْمٍ تَعَبُّدِيٍّ، بَلْ هُوَ تَأْصِيلٌ لِمِحْوَرِيَّةِ (الْمَرْكَزِ) قَبْلَ الِانْطِلَاقِ إِلَى (الْأَطْرَافِ).

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: عِرْفَانِيّاً (مِيقَاتُ الْحُضُورِ وَتَجَلِّيَاتُ النُّورِ)

يُشِيرُ الْإِمَامُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) إِلَى أَنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ هُوَ مَظْهَرٌ لِـ "الْجَمْعِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ" فِي عَالَمِ الزَّمَانِ. عِرْفَانِيّاً، الزَّمَانُ لَيْسَ أَوْعِيَةً جَامِدَةً، بَلْ هُوَ شُؤُونٌ وُجُودِيَّةٌ تَتَفَاوَتُ فِيهَا الْفُيُوضَاتُ. فَالنَّهْيُ عَنِ السَّفَرِ قَبْلَ الصَّلَاةِ هُوَ تَحْذِيرٌ مِنَ الِانْفِصَالِ عَنْ مَجْلَى الْحَقِّ حَالَ تَجَلِّيهِ لِعِبَادِهِ. فَالْمُسَافِرُ قَبْلَ الشُّهُودِ يُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ "حِجَابِ الْبُعْدِ"، بَيْنَمَا الِاسْتِثْنَاءُ لِـ "سَبِيلِ اللَّهِ" يَعْنِي أَنَّ السَّالِكَ إِذَا كَانَ فِي حَرَكَةٍ نَحْوَ الْحَقِّ، فَقَدْ حَقَّقَ جَوْهَرَ الشُّهُودِ وَإِنْ تَبَدَّدَ شَكْلُهُ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: فَلْسَفِيّاً (تَرَاتُبِيَّةُ الْغَايَاتِ وَنِظَامُ الصُّدُورِ)

تَقُومُ الْبُنْيَةُ الْفَلْسَفِيَّةُ لِهَذَا التَّوْجِيهِ عَلَى مَبْدَأِ "الْأَوْلَوِيَّةِ الْوُجُودِيَّةِ". فَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ قَاصِدَةً لِلْكَمَالِ، وَكَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ "مِعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ"، فَالِاشْتِغَالُ بِالْعَرَضِ (السَّفَرِ الدُّنْيَوِيِّ) قَبْلَ الْجَوْهَرِ (الِاتِّصَالِ بِالْمَبْدَإِ) يُعَدُّ خَلَلًا فِي نِظَامِ التَّدْبِيرِ الْعَقْلِيِّ. الْإِمَامُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يُلْزِمُ الْمُكَلَّفَ بِتَحْقِيقِ "الثَّبَاتِ الزَّمَانِيِّ" لِاسْتِكْمَالِ الْقُوَّةِ الْعَالِمَةِ وَالْعَامِلَةِ عَبْرَ شُهُودِ الصَّلَاةِ، لِيَكُونَ السَّفَرُ بَعْدَهَا صَادِراً عَنْ نَفْسٍ مُسْتَكْمِلَةٍ بِنُورِ الْقُدْسِ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: أَخْلَاقِيّاً (مَلَكَةُ التَّعْظِيمِ وَرِيَاضَةُ الصَّبْرِ)

يُؤَصِّلُ النَّصُّ لِمَلَكَةِ "تَوْقِيرِ الشَّعَائِرِ" كَجُزْءٍ مِنْ صِيَاغَةِ الذَّاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ. الِانْتِظَارُ لِلصَّلَاةِ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي السَّفَرِ هُوَ "رِيَاضَةٌ نَفْسَانِيَّةٌ" لِكَسْرِ سَوْرَةِ الِاسْتِعْجَالِ وَقَمْعِ شَهْوَةِ التَّحَرُّكِ لِمَنَافِعِ الدُّنْيَا. كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ» يُرَبِّي فِي السَّالِكِ خُلُقَ "الْإِنْصَافِ مَعَ النَّفْسِ"، بِحَيْثُ لَا يَقَعُ فِي الْإِفْرَاطِ الَّذِي يُعَطِّلُ مَصَالِحَ الْعِبَادِ، وَلَا فِي التَّفْرِيطِ الَّذِي يَهْتِكُ حُرْمَةَ الْمِيعَادِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ وَالرِّوَائِيَّةُ

تَتَضَافَرُ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ "الزَّمَانَ" لَيْسَ أَوْعِيَةً مُتَسَاوِيَةً، بَلْ إِنَّ فِيهِ مَوَاقِيتَ تَتَجَلَّى فِيهَا الْحُرْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ، وَيَقْتَضِي تَعْظِيمُهَا رِيَاضَةً خَاصَّةً لِلْجَوَارِحِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

١. الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ (تَعْظِيمُ الشَّعَائِرِ وَتَقْوَى الْقُلُوبِ)
جَوْهَرُ الِانْقِيَادِ الْقَلْبِيِّ: يَقُولُ تَعَالَى: «ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» (١)؛ يُؤَصِّلُ الْقُرْآنُ لِحَقِيقَةِ أَنَّ تَعْظِيمَ الْمَوَاقِيتِ الْمُقَدَّسَةِ لَيْسَ مُجَرَّدَ فِعْلٍ ظَاهِرِيٍّ، بَلْ هُوَ انْعِكَاسٌ لِطَهَارَةِ الْبَاطِنِ؛ فَالِالْتِزَامُ بِوَقْتِ الْجُمُعَةِ وَعَدَمُ هَجْرِهِ بِالسَّفَرِ هُوَ مَجْلًى لِتِلْكَ التَّقْوَى الَّتِي تَرْفِضُ اسْتِبْدَالَ "الْحَقِّ" بِـ "الشَّوَاغِلِ"، وَهُوَ عَيْنُ مَا قَصَدَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي حِفْظِ هَيْبَةِ الزَّمَانِ.
٢. الشَّوَاهِدُ الرِّوَائِيَّةُ (حُرْمَةُ الشَّعِيرَةِ وَمَنْطِقُ الصِّيَانَةِ)
الْمَسْؤُولِيَّةُ تِجَاهَ الْحَقِّ الزَّمَانِيِّ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «إِنَّ لِلْجُمُعَةِ حَقّاً، فَإِيَّاكَ أَنْ تُضَيِّعَ حُرْمَتَهُ» (٢)؛ يُعَدُّ هَذَا النَّصُّ بَيَاناً لِلْقِيمَةِ الْوُجُودِيَّةِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ حَيْثُ يُنَبِّهُ إِلَى ضَرُورَةِ الِاحْتِرَازِ مِنْ أَيِّ سُلُوكٍ يُفْضِي إِلَى "الضَّيَاعِ" الْمَعْنَوِيِّ؛ وَمِنْ هُنَا يَأْتِي مَنْطِقُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي النَّهْيِ عَنِ السَّفَرِ قَبْلَ الصَّلَاةِ كَتَوْضِيحٍ عَمَلِيٍّ لِصِيَانَةِ هَذِهِ الْحُرْمَةِ مِنَ الِانْتِهَاكِ بِمُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ الدُّنْيَوِيَّةِ فِي وَقْتِ الْجَذْبِ الْإِلَهِيِّ.
الْحَذَرُ مِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِالْمِيقَاتِ: رُوِيَ فِي الْأَثَرِ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) أَنَّ مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ اسْتِهَانَةً بِهَا نَكَتَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ (٣)؛ وَهَذَا يُصَدِّقُ ضَرُورَةَ "الِارْتِبَاطِ" الَّذِي نَبَّهَ عَلَيْهِ الْإِمَامُ، فَالسَّفَرُ الَّذِي يَقْطَعُ هَذَا الِارْتِبَاطَ هُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّفْرِيطِ فِي الْمَدَدِ الرُّوحِيِّ النَّازِلِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.
الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: الْفَوَائِدُ الْمُتَرَتِّبَةُ (ثَمَرَاتُ الِانْضِبَاطِ الشَّرْعِيِّ)
فَائِدَةُ التَّوْفِيقِ الْوُجُودِيِّ: السَّفَرُ الْمَسْبُوقُ بِالذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ يَكُونُ مَحْفُوفاً بِـ "الْعِنَايَةِ الْخَاصَّةِ"، فَتَنْقَلِبُ مَشَقَّاتُهُ إِلَى رَاحَاتٍ بِبَرَكَةِ الشُّهُودِ.
فَائِدَةُ تَعْزِيزِ الْهُوِيَّةِ الْجَمَاعِيَّةِ: شُهُودُ الصَّلَاةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ الرَّحِيلِ يُثَبِّتُ فِي النَّفْسِ مَعْنَى "الِاتِّصَالِ بِالْكُلِّ"، فَلَا يَشْعُرُ الْمُسَافِرُ بِالْغُرْبَةِ لِأَنَّ زَادَهُ الرُّوحِيَّ مَوْصُولٌ بِالْجَمَاعَةِ.
فَائِدَةُ السَّكِينَةِ الْقَلْبِيَّةِ: مَنْ أَدَّى حَقَّ يَوْمِهِ، سَارَ فِي أَرْضِ اللَّهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ، مِمَّا يُورِثُهُ طُمَأْنِينَةً تَمْنَعُ عَنْهُ خَوَاطِرَ الْخَوْفِ وَالْقَلَقِ.
فَائِدَةُ التَّرَقِّي فِي مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ: الِانْضِبَاطُ بِأَوَامِرِ الْإِمَامِ يُحَوِّلُ الْعَادَاتِ (كَالسَّفَرِ) إِلَى عِبَادَاتٍ، فَيَصِيرُ تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ فِي الْبِلَادِ تَسْبِيحاً عَمَلِيّاً.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: وِحْدَةُ السَّيْرِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ

يَلْخَصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ تَوْجِيهَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لَيْسَ تَقْيِيداً لِلْحُرِّيَّةِ، بَلْ هُوَ "تَحْرِيرٌ لِلرُّوحِ" مِنْ عَبَثِيَّةِ الزَّمَانِ. إِنَّ تَعْظِيمَ الْجُمُعَةِ بِشُهُودِ صَلَاتِهَا هُوَ شَحْنٌ لِلْقُوَّةِ الرُّوحِيَّةِ قَبْلَ الِانْطِلَاقِ فِي آفَاقِ الْأَرْضِ. فَالْمُسَافِرُ الْحَقُّ مَنْ سَافَرَ بَعْدَ أَنْ أَثْبَتَ قَدَمَهُ فِي مَحْضَرِ الْقُدْسِ، لِيَكُونَ سَفَرُهُ سَيْراً مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْخَلْقِ، مُتَسَلِّحاً بِأَنْوَارِ السَّجْدَةِ وَالشُّهُودِ.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ الْحَجِّ، الْآيَةُ ٣٢.
(٢) الثِّقَةُ الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٣، ص ٤١٤.
(٣) الْعَلَّامَةُ الْمَجْلِسِيُّ، بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٨٦، ص ١٧٥.

تَأْصِيلُ السِّيَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَشُمُولِيَّةِ الِانْقِيَادِ: دِرَاسَةٌ فِي أَصَالَةِ الطَّاعَةِ وَمَرَاتِبِهَا الْوُجُودِيَّةِ

«وَأَطِعِ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا»
يُؤَسِّسُ هَذَا التَّفْوِيضُ الْعَلَوِيُّ لِمَبْدَإِ "الْإِطْلَاقِ فِي الْعُبُودِيَّةِ"، حَيْثُ تَنْصَهِرُ جُزْئِيَّاتُ السُّلُوكِ فِي كُلِّيَّةِ الِانْقِيَادِ، فَلَا يَبْقَى لِلْمُكَلَّفِ خِيَرَةٌ أَمَامَ التَّدْبِيرِ الْإِلَهِيِّ. إِنَّ قَوْلَهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بِـ (فَضْلِ الطَّاعَةِ) هُوَ تَقْرِيرٌ لِأَصَالَةِ الْفِعْلِ الْمُرْتَبِطِ بِـ "الْمُطْلَقِ" عَلَى الْفِعْلِ الْمُرْتَبِطِ بِـ "الْمُقَيَّدِ".

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: أَقْسَامُ الطَّاعَةِ (بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ)

تَنْقَسِمُ الطَّاعَةُ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ إِلَى قِسْمَيْنِ مُتَكَامِلَيْنِ:
الطَّاعَةُ الْجَوَارِحِيَّةُ (الظَّاهِرَةُ): وَهِيَ الِامْتِثَالُ الْعَمَلِيُّ لِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْهَيْكَلِ الْحَافِظِ لِلشَّرِيعَةِ.
الطَّاعَةُ الْجَوَانِحِيَّةُ (الْبَاطِنَةُ): وَهِيَ انْقِيَادُ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى فِي السِّرِّ اعْتِرَاضٌ عَلَى تَدْبِيرِ الْحَقِّ، وَهِيَ لُبُّ قَوْلِهِ (فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ).

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: مَرَاتِبُ الطَّاعَةِ (تَرَاتُبِيَّةُ السَّالِكِينَ)

تَتَفَاوَتُ الطَّاعَةُ فِي رُتْبَتِهَا وِفْقَ بَاعِثِهَا وَقُصُودِ النَّفْسِ فِيهَا:
مَرْتَبَةُ طَاعَةِ الْخَوْفِ (الرَّهْبَةُ): وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ مِحَرِّكُهَا الْحَذَرَ مِنَ الْعِقَابِ، وَهِيَ مَبْدَأُ الِاسْتِقَامَةِ لِعَامَّةِ الْمُكَلَّفِينَ.
مَرْتَبَةُ طَاعَةِ الرَّجَاءِ (الرَّغْبَةُ): وَهِيَ الَّتِي تَبْتَغِي نَيْلَ الثَّوَابِ وَالْمَطَامِعِ الْأُخْرَوِيَّةِ، وَتُسَمَّى عِبَادَةَ التُّجَّارِ.
مَرْتَبَةُ طَاعَةِ الْأَحْرَارِ (الْمَعْرِفَةُ وَالشُّكْرُ): وَهِيَ الْعِلِّيَّةُ الَّتِي تُؤَدَّى لِأَنَّ اللَّهَ "أَهْلٌ لِذَلِكَ"، وَهِيَ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَأَفْضَلُهَا، لِأَنَّهَا طَاعَةٌ نَابِعَةٌ مِنَ الشُّهُودِ وَالْمَحَبَّةِ الَّتِي لَا تَشُوبُهَا أَنَانِيَّةٌ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: التَّأْصِيلُ الْفَلْسَفِيُّ (أَصَالَةُ الْوُجُوبِ وَنِظَامُ الْعِلِّيَّةِ)

تَقُومُ الْقَاعِدَةُ الْفَلْسَفِيَّةُ هُنَا عَلَى أَنَّ الطَّاعَةَ هِيَ رُجُوعُ الْمَعْلُولِ إِلَى عِلَّتِهِ؛ فَبِمَا أَنَّ اللَّهَ هُوَ مَبْدَأُ كُلِّ الْأُمُورِ وَغَايَتُهَا، فَإِنَّ طَاعَتَهُ تُمَثِّلُ الِاتِّصَالَ بِـ "الْعِلَّةِ الْغَائِيَّةِ" لِلْوُجُودِ. الْفَضْلُ هُنَا يَعْنِي (الْأَكْمَلِيَّةَ الْوُجُودِيَّةَ)؛ إِذْ إِنَّ الْفِعْلَ الْمُنْقَادَ لِلَّهِ هُوَ فِعْلٌ "مُحَصِّلٌ لِلْكَمَالِ"، بَيْنَمَا تَرْكُ الطَّاعَةِ هُوَ انْقِطَاعٌ عَنْ مَبْدَإِ الْوُجُودِ وَسُقُوطٌ فِي رُتْبَةِ النَّقْصِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: التَّأْصِيلُ الْعِرْفَانِيُّ (فَنَاءُ الْإِرَادَةِ وَشُهُودُ الْمَحْبُوبِ)

عِرْفَانِيّاً، الطَّاعَةُ فِي (جَمِيعِ الْأُمُورِ) تَعْنِي "فَنَاءَ إِرَادَةِ الْعَبْدِ" فِي إِرَادَةِ الْحَقِّ، بِحَيْثُ يَضْمَحِلُّ تَأْثِيرُ الْأَغْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ أَمَامَ سُلْطَانِ الْأُلُوهِيَّةِ. السَّالِكُ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ لَا يَرَى نَفْسَهُ مُطِيعاً، بَلْ يَرَى الطَّاعَةَ فَيْضاً إِلَهِيّاً جَرَى عَلَى جَوَارِحِهِ، مِمَّا يُورِثُهُ "أُنْسَ الِانْقِيَادِ" وَيَجْعَلُ زَمَانَهُ كُلَّهُ حُضُوراً مَعَ الْمَحْبُوبِ.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ:الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ وَالرِّوَائِيَّةُ (مِنَ الْمَنْقُولِ الشَّرِيفِ)

تَتَجَلَّى وَحْدَةُ الِانْقِيَادِ فِي هَذِهِ الرُّبَاعِيَّةِ كَنِظَامٍ وُجُودِيٍّ يَرْبِطُ الْعَبْدَ بِالْمَبْدَأِ الْأَعْلَى، وَتَنْقَسِمُ إِلَى مَظَاهِرَ تَنْزِيلِيَّةٍ وَتَجَلِّيَاتٍ رِوَائِيَّةٍ:
أَوَّلًا: مِنَ الْأُفُقِ التَّنْزِيلِيِّ (الْفَنَاءُ فِي الْإِرَادَةِ)
اضْمِحْلَالُ الِاخْتِيَارِ الذَّاتِيِّ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» (١)؛ حَيْثُ تَتَلَاشَى (الْأَنَا) الْمُرِيدَةُ فِي حَضْرَةِ الْإِرَادَةِ الْمُطْلَقَةِ؛ فَالْخِيَرَةُ حِجَابٌ بَشَرِيٌّ يَرْتَفِعُ عِنْدَ تَحَقُّقِ كَمَالِ التَّسْلِيمِ، لِيُصْبِحَ فِعْلُ الْعَبْدِ مَجْلًى لِفِعْلِ الْحَقِّ.
سَرَيَانُ الْمَدَدِ بِالْوَسَائِطِ: يَقُولُ تَعَالَى: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» (٢)؛ وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى رَبْطِ الْكَثْرَةِ بِالْوَحْدَةِ؛ فَمَا طَاعَةُ الرَّسُولِ إِلَّا تَعَيُّنٌ لِطَاعَةِ الْحَقِّ، وَتَأْكِيدٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ فِي عَالَمِ الْإِمْكَانِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ تَبَعًا لِلْأَصْلِ الْإِلَهِيِّ لِتَنَالَ مَدَدَ الْبَقَاءِ.
ثَانِيًا: مِنَ الْإِشْرَاقِ الرِّوَائِيِّ (تَحَقُّقُ الْجَوْهَرِ بِالْعُبُودِيَّةِ)
مِعْرَاجُ التَّسْبِيحِ الْحَقِيقِيِّ: عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «لَا سُبْحَةَ كَالِانْقِيَادِ لِلَّهِ» (٣)؛ فَالِانْقِيَادُ هُنَا هُوَ "التَّسْبِيحُ الْجَوْهَرِيُّ" الَّذِي يَتَفَوَّقُ عَلَى الرُّسُومِ وَالْأَذْكَارِ اللَّفْظِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ سُجُودَ الرُّوحِ الدَّائِمَ فِي مِحْرَابِ الْفَقْرِ الذَّاتِيِّ أَمَامَ الْغِنَى الْمُطْلَقِ.
غَايَةُ التَّجَلِّي الْمَعْرِفِيِّ: عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «رَأْسُ الْعِلْمِ طَاعَةُ اللَّهِ» (٤)؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ مَلَكُوتِيٌّ لَا يَسْتَقِرُّ إِلَّا فِي وِعَاءِ الطَّاعَةِ؛ فَالْعِلْمُ بِلَا انْقِيَادٍ هُوَ صُورَةٌ بِلَا حَقِيقَةٍ، وَمَعْرِفَةٌ بِلَا أَثَرٍ، لَا تُفْضِي إِلَى اتِّحَادِ الْعَالِمِ بِمَعْلُومِهِ الْأَقْدَسِ.

الْمَطْلَبُ السَّادِسُ: الْفَوَائِدُ الْمُتَرَتِّبَةُ (ثَمَرَاتُ السِّيَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ)

التَّحَرُّرُ الْوُجُودِيُّ: الطَّاعَةُ لِلَّهِ تُحَرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْأَهْوَاءِ.
نَيْلُ الْعِزَّةِ: الْمُطِيعُ يَنْتَسِبُ إِلَى "الْعَزِيزِ الْمُطْلَقِ".
اسْتِقَامَةُ النِّظَامِ: الِانْصِيَاعُ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ يُنَظِّمُ الْحَيَاةَ وِفْقَ نِظَامٍ سَلِيمٍ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: وِحْدَةُ الْمَقْصَدِ

يَلْخَصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ تَوْجِيهَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَرْسُمُ طَرِيقَ "السِّيَادَةِ الرُّوحِيَّةِ"، حَيْثُ إِنَّ جَعْلَ الطَّاعَةِ فَاضِلَةً عَلَى مَا سِوَاهَا هُوَ إِقْرَارٌ بِأَنَّ كُلَّ فِعْلٍ لَا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ هُوَ هَبَاءٌ مَنْثُورٌ. فَالْحَكِيمُ مَنْ فَنِيَتْ إِرَادَتُهُ فِي إِرَادَةِ مَوْلَاهُ، لِيَكُونَ فِعْلُهُ كُلُّهُ طَاعَةً، وَعَاقِبَتُهُ كُلُّهَا فَلَاحاً.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ الْأَحْزَاب، الْآيَةُ ٣٦.
(٢) سُورَةُ النِّسَاء، الْآيَةُ ٥٩.
(٣) اللَّيْثِيُّ الْوَاسِطِيُّ، عُيُونُ الْحِكَمِ وَالْمَوَاعِظِ، ص ٥٣٣.
(٤) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ١، ص ٢٠٦.

سِيَاسَةُ النَّفْسِ وَتَدْبِيرُ الِانْقِيَادِ: دِرَاسَةٌ فِي أَصَالَةِ الطَّاعَةِ وَمَرَاتِبِ الرِّفْقِ السُّلُوكِيِّ

«وَأَطِعِ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا»
«وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ وَارْفُقْ بِهَا وَلَا تَقْهَرْهَا وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِفَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَتَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا،»
يُؤَسِّسُ الْإِمَامُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لِمُعَادَلَةٍ دَقِيقَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ "كُلِّيَّةِ الِانْقِيَادِ" وَبَيْنَ "سِيَاسَةِ النَّفْسِ". فَإِذَا كَانَتِ الطَّاعَةُ هِيَ الْأَصْلُ الْفَاضِلُ عَلَى مَا سِوَاهُ، فَإِنَّ الْوُصُولَ إِلَيْهَا يَتَطَلَّبُ تَدْبِيراً حَكِيماً يَتَرَدَّدُ بَيْنَ الْإِلْزَامِ فِي الْفَرَائِضِ وَالِاسْتِمَالَةِ فِي النَّوَافِلِ، لِيَكُونَ السَّيْرُ نَحْوَ اللَّهِ سَيْراً رَفِيقاً مُسْتَدَاماً.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: أَقْسَامُ الطَّاعَةِ (بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ)

تَنْقَسِمُ الطَّاعَةُ إِلَى:
الطَّاعَةُ الْفَرِيضَةُ (الْمَكْتُوبَةُ): وَهِيَ الَّتِي لَا مَجَالَ فِيهَا لِلْمُخَادَعَةِ أَوْ التَّرَاخِي، بَلْ يَجِبُ "قَضَاؤُهَا وَتَعَاهُدُهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا".
الطَّاعَةُ النَّدْبِيَّةُ (عَفْوُ النَّفْسِ): وَهِيَ الَّتِي تُؤَدَّى حَالَ النَّشَاطِ، وَهِيَ مَيْدَانُ الرِّفْقِ وَالْمُدَارَاةِ لِتَحْبِيبِ الْعِبَادَةِ إِلَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ حَتَّى تَطْمَئِنَّ.
الْمَطْلَبُ الثَّانِي: مَرَاتِبُ الطَّاعَةِ (تَرَاتُبِيَّةُ السَّالِكِينَ)
تَتَفَاوَتُ رُتْبَةُ الطَّاعَةِ بِحَسَبِ حَالِ النَّفْسِ:
مَرْتَبَةُ "قَهْرِ النَّفْسِ": وَتَكُونُ فِي الْفَرَائِضِ لِضَمَانِ الِانْقِيَادِ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ.
مَرْتَبَةُ "مُخَادَعَةِ النَّفْسِ": وَتَكُونُ فِي الْمُسْتَحَبَّاتِ، حَيْثُ يُسَاقُ الطَّبْعُ إِلَى الْحَقِّ بِلَطَافَةٍ دُونَ إِكْرَاهٍ يُورِثُ السَّآمَةَ.
مَرْتَبَةُ "الِاسْتِقَامَةِ الشَّامِلَةِ": وَهِيَ الَّتِي عَنَاهَا بِقَوْلِهِ (فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ)، حَيْثُ تَصِيرُ الطَّاعَةُ سَجِيَّةً لَا تَحْتَاجُ إِلَى قَهْرٍ أَوْ خِدَاعٍ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: التَّأْصِيلُ الْفَلْسَفِيُّ (نِظَامُ الْعِلِّيَّةِ وَتَدْبِيرُ الْقُوَى)

تَقُومُ الْفَلْسَفَةُ السُّلُوكِيَّةُ هُنَا عَلَى أَنَّ النَّفْسَ مَرْكَبٌ لِلْعَقْلِ؛ فَبِمَا أَنَّ الطَّاعَةَ هِيَ الْكَمَالُ الْأَقْصَى (الْعِلَّةُ الْغَائِيَّةُ)، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي الْحِفَاظَ عَلَى سَلَامَةِ هَذَا الْمَرْكَبِ. "الْقَهْرُ" فِي غَيْرِ الْفَرِيضَةِ يُؤَدِّي إِلَى انْقِطَاعِ الْقُوَّةِ الْمُحَرِّكَةِ، بَيْنَمَا "الرِّفْقُ" يَضْمَنُ اسْتِمْرَارَ الْحَرَكَةِ نَحْوَ مَبْدَإِ الْوُجُودِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: التَّأْصِيلُ الْعِرْفَانِيُّ (سِيَاسَةُ السِّرِّ وَشُهُودُ الْيُسْرِ)

عِرْفَانِيّاً، الطَّاعَةُ هِيَ تَجَلِّي الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الْعَبْدِ. الْعَارِفُ يَعْلَمُ أَنَّ لِلنَّفْسِ "إِقْبَالاً وَإِدْبَاراً"، فَيُخَادِعُهَا بِالْمَوَاعِيدِ الرُّوحِيَّةِ لِيَجْذِبَهَا إِلَى حَظِيرَةِ الْقُدْسِ. قَوْلُهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) «خُذْ عَفْوَهَا» يَعْنِي اقْتِنَاصَ لَحَظَاتِ الصَّفَاءِ لِتَحْقِيقِ الشُّهُودِ، مَعَ الْبَقَاءِ عَلَى جَادَّةِ الْفَرِيضَةِ كَعَهْدٍ ثَابِتٍ لَا يَتَبَدَّلُ.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: التَّأْصِيلُ الْأَخْلَاقِيُّ (صِنَاعَةُ الرِّضَا وَتَهْذِيبُ الْإِرَادَةِ)

يُؤَسِّسُ هَذَا التَّوجِيهُ لِأَخْلَاقِ "الْمُدَارَاةِ الذَّاتِيَّةِ"، حَيْثُ يُعَامِلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِصِفَاتِ الْخَالِقِ مِنْ رَحْمَةٍ وَحِكْمَةٍ، وَذَلِكَ عَبْرَ رَكِيزَتَيْنِ:

1. خُلُقُ الرِّفْقِ بِالذَّاتِ (نَبْذُ الْعُنْفِ الرُّوحِيِّ):

مِنْ مَنْظُورٍ أَخْلَاقِيٍّ، الْقَهْرُ يُوَلِّدُ الِانْفِجَارَ أَوْ الِانْكِسَارَ. إِنَّ قَوْلَهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) «وَلَا تَقْهَرْهَا» يُعَلِّمُ السَّالِكَ أَنَّ الْعَدْلَ مَعَ النَّفْسِ مَطْلَبٌ أَخْلَاقِيٌّ سَابِقٌ عَلَى النَّوَافِلِ. فَالْمُبَالَغَةُ فِي تَعْذِيبِ النَّفْسِ بِالْعِبَادَةِ دُونَ مَيْلٍ قَلْبِيٍّ تُورِثُ "سُوءَ الْخُلُقِ" مَعَ اللَّهِ وَمَعَ النَّاسِ، لِأَنَّ النَّفْسَ الْمُكْرَهَةَ تَكُونُ ضَيِّقَةً حَرِجَةً. أَمَّا الرِّفْقُ فَيُورِثُ السَّمَاحَةَ وَطِيبَ النَّفْسِ.

2. الصِّدْقُ فِي مَقَامِ الِاضْطِرَارِ وَالِاخْتِيَارِ:

يُمَيِّزُ هَذَا الْمَنْهَجُ بَيْنَ خُلُقَيْنِ:

خُلُقُ الِانْضِبَاطِ: فِي الْفَرِيضَةِ، حَيْثُ يَتَرَبَّى الْمَرْءُ عَلَى الِاحْتِرَامِ الصَّارِمِ لِلْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ.

خُلُقُ الْإِخْلَاصِ الطَّوْعِيِّ: فِي غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، حَيْثُ يَكُونُ الصِّدْقُ مِعْيَاراً؛ فَلَا يُؤَدِّي الْعِبَادَةَ تَظَاهُراً أَوْ تَكَلُّفاً، بَلْ يَأْخُذُ مِنْهَا مَا "سَمَحَتْ" بِهِ نَفْسُهُ صِدْقاً، مِمَّا يُطَهِّرُ الْبَاطِنَ مِنَ النِّفَاقِ السُّلُوكِيِّ.

3. تَهْذِيبُ قُوَّةِ "الطَّمَعِ" وَ"الْعَجَلَةِ":

غَالِبًا مَا يَنْدَفِعُ السَّالِكُ فِي بِدَايَاتِهِ بِدَافِعِ "الطَّمَعِ فِي الْمَقَامَاتِ" فَيُحَمِّلُ نَفْسَهُ مَا لَا تُطِيقُ. التَّحْذِيرُ الْعَلَوِيُّ يُهَذِّبُ هَذِهِ الْعَجَلَةَ بِخُلُقِ "الْأَنَاةِ" وَ**"الصَّبْرِ الْجَمِيلِ"**. فَالْمُخَادَعَةُ لَيْسَتْ كَذِباً، بَلْ هِيَ "سِيَاسَةُ تَشْوِيقٍ" تَنْقُلُ النَّفْسَ مِنْ حَالِ الْكَرَاهَةِ إِلَى حَالِ الْعِشْقِ الْإِلَهِيِّ.

4. مَلَكَةُ "الْمُرَاقَبَةِ الْبَصِيرَةِ":

إِنَّ أَخْذَ "عَفْوِ النَّفْسِ وَنَشَاطِهَا" يَتَطَلَّبُ خُلُقَ الْيَقَظَةِ؛ أَيْ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ رَقِيباً بَصِيراً عَلَى تَقَلُّبَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ. هَذَا الِاشْتِغَالُ بِفَهْمِ الذَّاتِ يَمْنَعُ عَنِ الْإِنْسَانِ خُلُقَ "الْغَفْلَةِ" وَيَجْعَلُهُ أَكْثَرَ تَفَهُّماً لِأَعْذَارِ الْآخَرِينَ وَضَعْفِهِمْ، لِأَنَّهُ جَرَّبَ "مُدَارَاةَ" نَفْسِهِ.

إِنَّ "سِيَاسَةَ النَّفْسِ" فِي هَذَا النَّصِّ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ مَزِيجٍ بَيْنَ الْهَيْبَةِ لِلَّهِ (فِي الْفَرَائِضِ) وَالرَّحْمَةِ بِالْعَبْدِ (فِي النَّوَافِلِ). وَمَنْ صَحَّتْ أَخْلَاقُهُ مَعَ نَفْسِهِ بَيْنَ الْإِلْزَامِ وَالْإِكْرَامِ، صَفَا لَهُ طَرِيقُ الْعُبُودِيَّةِ، وَصَارَتْ طَاعَتُهُ فَاضِلَةً حَقّاً، لِأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ قَلْبٍ مُطْمَئِنٍ، لَا مِنْ نَفْسٍ مَقْهُورَةٍ.

الْمَطْلَبُ السَّادِسُ: الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ وَالرِّوَائِيَّةُ (مِنَ الْمَنْقُولِ الشَّرِيفِ)

تَتَجَلَّى هَذِهِ الرُّبَاعِيَّةُ كَهَنْدَسَةٍ وُجُودِيَّةٍ تُوَازِنُ بَيْنَ "جَمَالِ الرِّفْقِ" وَ"جَلَالِ الثَّبَاتِ"، لِتَحْقِيقِ الِانْسِجَامِ الْأَتَمِّ بَيْنَ النَّفْسِ وَخَالِقِهَا:

أَوَّلًا: مِنَ الْأُفُقِ التَّنْزِيلِيِّ (تَجَلِّي الرَّحْمَةِ وَالْعَزِيمَةِ)

مَحْضُ الْيُسْرِ وَانْسِجَامُ الْفِطْرَةِ: يَقُولُ تَعَالَى: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» (١)؛ وَهُوَ كَشْفٌ عَنْ سَبْقِ صِفَةِ "الرَّحْمَانِيَّةِ" لِلتَّكْلِيفِ؛ حَيْثُ لَا تَتَبَدَّى الطَّاعَةُ كَعِبْءٍ قَهْرِيٍّ، بَلْ كَفِعْلٍ يَتَنَاغَمُ مَعَ جَوْهَرِ الْفِطْرَةِ فِي مَبْدَإِ الرِّفْقِ، مِمَّا يَجْعَلُ الِانْقِيَادَ تَلَذُّذاً بِالْوُصُولِ لَا عَنَاءً فِي الطَّرِيقِ.
ثَبَاتُ الْجَوْهَرِ بِالِاسْتِقَامَةِ: يَقُولُ تَعَالَى: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» (٢)؛ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى ضَرُورَةِ (تَعَاهُدِ الْفَرَائِضِ) بِرُوحِ الْيَقِينِ الصَّلْبِ؛ حَيْثُ يَتَرَقَّى السَّالِكُ مِنَ الطَّاعَةِ الرَّسْمِيَّةِ إِلَى مَقَامِ "الْعَزِيمَةِ"؛ لِيَصِيرَ انْقِيَادُهُ جَوْهَراً ثَابِتاً لَا تُزَعْزِعُهُ عَوَارِضُ النَّفْسِ أَوْ صَوَارِفُ النَّاسُوتِ.
ثَانِيًا: مِنَ الْإِشْرَاقِ الرِّوَائِيِّ (فَلْسَفَةُ النَّشَاطِ الْقَلْبِيِّ)
دَفْعُ الْإِكْرَاهِ وَشَوْقُ الْوِصَالِ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «لَا تُكَرِّهُوا إِلَى أَنْفُسِكُمُ الْعِبَادَةَ» (٣)؛ وَهُوَ عَيْنُ مَا قَرَّرَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي قَوْلِهِ: «لَا تَقْهَرْهَا»؛ إِذْ إِنَّ الْعِبَادَةَ الْقَهْرِيَّةَ تَفْقِدُ لَطَافَتَهَا وَتَسْتَحِيلُ رَسْماً بِلَا رُوحٍ، بَيْنَمَا الْعِبَادَةُ الَّتِي تَنْبَعُ مِنَ الشَّوْقِ تَصِيرُ "قُوتاً" لِلْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى فِي ذَاتِ الْإِنْسَانِ.
نَشَاطُ الْقَابِلِيَّةِ وَمُرَاعَاةُ الْإِقْبَالِ: عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «إِنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالاً وَإِدْبَاراً، فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ» (٤)؛ وَهِيَ لَطِيفَةٌ عِرْفَانِيَّةٌ تَدْعُو إِلَى اسْتِثْمَارِ لَحَظَاتِ "الْفَيْضِ" لِتَحْقِيقِ الْقُرْبِ، وَحِمَايَةِ النَّفْسِ فِي حَالِ "الْقَبْضِ" عَنِ التَّكَلُّفِ الَّذِي يُورِثُ السَّأَمَ وَالِانْفِصَالَ؛ لِيَكُونَ السَّيْرُ إِلَى الْحَقِّ نُزُوعاً طَوْعِيّاً يَتَّسِقُ مَعَ تَقَلُّبَاتِ الْجَوْهَرِ الْقَلْبِيِّ.

الْمَطْلَبُ السَّابِعُ: الْفَوَائِدُ الْمُتَرَتِّبَةُ (ثَمَرَاتُ الرِّفْقِ فِي الطَّاعَةِ)

دَوَامُ الِاتِّصَالِ: الرِّفْقُ يَمْنَعُ الِارْتِدَادَ وَالنُّفُورَ عَنِ الْعِبَادَةِ.
تَحْقِيقُ الْإِخْلَاصِ: الطَّاعَةُ عَنْ نَشَاطٍ تَكُونُ أَقْرَبَ لِلْقَبُولِ وَأَبْعَدَ عَنِ الرِّيَاءِ.
انْضِبَاطُ الْفَرَائِضِ: التَّرْكِيزُ عَلَى الْفَرِيضَةِ يُؤَمِّنُ الْحَدَّ الْأَدْنَى مِنَ الْكَمَالِ الْوَاجِبِ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: تَوْحِيدُ الْمَسَارِ بَيْنَ الْجَهْدِ وَاللُّطْفِ

يَلْخَصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ كَمَالَ الِانْقِيَادِ يَتِمُّ بِتَقْدِيمِ طَاعَةِ اللَّهِ (فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ) مَعَ مُرَاعَاةِ طَاقَةِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ. إِنَّ الْحِكْمَةَ الْعَلَوِيَّةَ تَمْزُجُ بَيْنَ "صَرَامَةِ التَّكْلِيفِ" فِي الْفَرَائِضِ، وَ"لُطْفِ التَّأْلِيفِ" فِي النَّوَافِلِ، لِيَصِلَ السَّالِكُ إِلَى رَبِّهِ بِنَفْسٍ رَاضِيَةٍ مَرْضِيَّةٍ، قَدْ فَنِيَتْ أَهْوَاؤُهَا فِي مَحَبَّةِ خَالِقِهَا.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ الْبَقَرَة، الْآيَةُ ١٨٥.
(٢) سُورَةُ الْأَحْقَاف، الْآيَةُ ٣٥.
(٣) الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٢، ص ٨٦.
(٤) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، حِكْمَةُ ٣١٢.

تَحْذِيرُ الْإِبَاقِ وَحَقِيقَةُ الِاسْتِعْدَادِ: دِرَاسَةٌ فِي رُتْبَةِ الْمَوْتِ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا

«وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا»
يُقَدِّمُ الْإِمَامُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ذُرْوَةَ التَّحْذِيرِ مِنْ خَطَرِ الِاسْتِغْرَاقِ فِي الْعَرَضِ (الدُّنْيَا) عَلَى حِسَابِ الْجَوْهَرِ (الْعُبُودِيَّةِ). إِنَّ "الْإِبَاقَ" هُوَ خُرُوجُ الْعَبْدِ عَنْ سُلْطَانِ مَوْلَاهُ، وَفَاجِعَةُ الْمَوْتِ حَالَ الْإِبَاقِ هِيَ الِانْقِطَاعُ الْأَبَدِيُّ عَنِ الْكَمَالِ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، مِمَّا يَجْعَلُ هَذَا النَّصَّ مِعْيَاراً لِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: أَقْسَامُ الْإِبَاقِ (بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ)

تَنْقَسِمُ حَالَةُ الْإِبَاقِ الَّتِي حَذَّرَ مِنْهَا الْإِمَامُ إِلَى قِسْمَيْنِ:
الْإِبَاقُ الْعَمَلِيُّ: وَهُوَ الِاشْتِغَالُ بِطَلَبِ الدُّنْيَا مَعَ تَرْكِ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ، فَيَكُونُ الْعَبْدُ هَارِباً مِنْ تَكْلِيفِ مَوْلَاهُ.
الْإِبَاقُ الْقَلْبِيُّ: وَهُوَ الِانْصِرَافُ بِالْهِمَّةِ وَالْيَقِينِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ "طَلَبُ الدُّنْيَا" هُوَ الْقِبْلَةُ الْبَاطِنِيَّةُ الَّتِي تَحْجُبُ رُؤْيَةَ الْمُنْعِمِ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: مَرَاتِبُ التَّيَقُّظِ وَعَقَبَةُ الدُّنْيَا

تَتَفَاوَتُ رُتْبَةُ الْحَذَرِ مِنَ الْمَوْتِ بِحَسَبِ "الْوِجْهَةِ":
مَرْتَبَةُ "الْحَيَاءِ": الَّتِي تَمْنَعُ الْعَبْدَ مِنْ أَنْ يَرَاهُ اللَّهُ حَيْثُ نَهَاهُ، خُصُوصاً عِنْدَ لَحْظَةِ الْمَوْتِ الْفَاصِلَةِ.
مَرْتَبَةُ "الِاسْتِعْدَادِ": وَهِيَ الَّتِي عَنَاهَا بِـ (إِيَّاكَ)، حَيْثُ يَكُونُ السَّالِكُ فِي حَالَةِ "حُضُورٍ" دَائِمٍ، فَلَا يَفْجَؤُهُ الْمَوْتُ إِلَّا وَهُوَ فِي حِصْنِ الطَّاعَةِ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: التَّأْصِيلُ الْفَلْسَفِيُّ (الْجَوْهَرُ وَالْعَرَضُ وَنِزَاعُ الْمَوْتِ)

تَقُومُ الْقَاعِدَةُ الْفَلْسَفِيَّةُ عَلَى أَنَّ الدُّنْيَا "عَرَضٌ زَائِلٌ" وَالْعُبُودِيَّةَ "جَوْهَرٌ بَاقٍ". الْمَوْتُ هُوَ لَحْظَةُ انْكِشَافِ الْحَقِيقَةِ، فَإِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِـ "الْآبِقِ"، فَقَدْ وَجَدَ نَفْسَهُ مُنْقَطِعاً عَنِ الْمُطْلَقِ (اللَّهِ) وَمُتَعَلِّقاً بِالْعَدَمِ (الدُّنْيَا)، وَهَذَا هُوَ عَيْنُ الشَّقَاءِ الْوُجُودِيِّ؛ لِأَنَّهُ اسْتَبْدَلَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ الِانْتِقَالِ لِدَارِ الْبَقَاءِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: التَّأْصِيلُ الْعِرْفَانِيُّ (شُهُودُ الْحُضُورِ وَسِجْنُ الْغَيْبَةِ)

عِرْفَانِيّاً، "الْآبِقُ" هُوَ الْغَائِبُ عَنْ مَحْضَرِ الْحَقِّ، الْمُغْتَرِبُ عَنْ مَوْطِنِهِ الْأَصْلِيِّ لِأَجْلِ حُطَامٍ زَائِلٍ. التَّحْذِيرُ مِنَ الْمَوْتِ حَالَ الْإِبَاقِ هُوَ دَعْوَةٌ لِـ (دَوَامِ الذِّكْرِ)؛ لِأَنَّ الِانْقِيَادَ لِلَّهِ يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ فِي مَقَامِ "الشُّهُودِ"، فَإِذَا جَاءَهُ الْمَوْتُ، انْتَقَلَ مِنْ حُضُورٍ إِلَى حُضُورٍ أَتَمَّ، بِخِلَافِ الْآبِقِ الَّذِي يَنْتَقِلُ مِنْ سِجْنِ الْغَفْلَةِ إِلَى حَسْرَةِ الْحِجَابِ.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: التَّأْصِيلُ الْأَخْلَاقِيُّ (فِقْهُ الِانْتِمَاءِ وَتَهْذِيبُ الْهَوَى)

يَرْتَقِي هَذَا التَّحْذِيرُ بِالْمَنْظُومَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، لِيَجْعَلَ مِنْ "الْمَوْتِ" بَوْصَلَةً لِتَصْحِيحِ الْمَسَارِ السُّلُوكِيِّ، وَذَلِكَ عَبْرَ نِقَاطٍ جَوْهَرِيَّةٍ:

1. تَرْسِيخُ مَلَكَةِ "الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ":
الْإِبَاقُ فِي جَوْهَرِهِ هُوَ "خِيَانَةٌ لِلْمِيثَاقِ" الْفِطْرِيِّ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ. أَخْلَاقِيّاً، يَبْنِي هَذَا النَّصُّ فِي النَّفْسِ قِيمَةَ الْأَمَانَةِ الْوُجُودِيَّةِ؛ فَإِذَا اسْتَشْعَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّ كُلَّ لَحْظَةٍ هِيَ مَوْعِدٌ مُحْتَمَلٌ لِلِّقَاءِ، كَفَّ عَنْ "الْغَدْرِ" بِوَاجِبَاتِهِ تِجَاهَ رَبِّهِ وَتِجَاهَ الْآخَرِينَ، فَيُصْبِحُ الِاسْتِقَامَةُ خُلُقاً ثَابِتاً لَا يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْمَصَالِحِ.
2. تَحْطِيمُ صَنَمِ "الْأَنَانِيَّةِ وَالِاسْتِعْلَاءِ":
"طَلَبُ الدُّنْيَا" الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْإِبَاقِ غَالِبًا مَا يَكُونُ مَدْفُوعًا بِالْغُرُورِ وَطَلَبِ الرِّئَاسَةِ أَوِ التَّمَلُّكِ. التَّحْذِيرُ مِنَ الْمَوْتِ حَالَ الْإِبَاقِ يَكْسِرُ حِدَّةَ الْكِبْرِ فِي النَّفْسِ؛ لِأَنَّهُ يُذَكِّرُ الْإِنْسَانَ بِضَعْفِهِ وَاضْطِرَارِهِ. فَالْعَبْدُ الَّذِي يَخْشَى أَنْ يَمُوتَ "آبِقاً" يَعِيشُ بَيْنَ النَّاسِ مُتَوَاضِعاً، لِأَنَّ هَمَّهُ الشَّاغِلَ هُوَ نَيْلُ رِضَا سَيِّدِهِ، لَا التَّعَالِي عَلَى عَبِيدِهِ.
3. الِانْتِقَالُ مِنْ "أَخْلَاقِ الْمَنْفَعَةِ" إِلَى "أَخْلَاقِ الْقِيمَةِ":
الْآبِقُ يَرْكُضُ خَلْفَ "الْمَنْفَعَةِ الْعَاجِلَةِ" (الدُّنْيَا). أَمَّا التَّحْذِيرُ الْعَلَوِيُّ فَيَدْفَعُ السَّالِكَ لِتَبَنِّي أَخْلَاقِ الْغَايَةِ؛ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ سُلُوكُهُ مَحْكُومًا بِمَا يَجْنِيهِ مِنَ الْمَادَّةِ، بَلْ بِمَا يُقَرِّبُهُ مِنَ الْمَبْدَأِ. هَذَا التَّحَوُّلُ يُورِثُ الْعِفَّةَ عَنِ الْحَرَامِ، وَالْقَنَاعَةَ بِمَا رُزِقَ، لِأَنَّهُ يَرَى الدُّنْيَا وَسِيلَةً لَا غَايَةً.
4. تَقْوِيَةُ "الْمُرَاقَبَةِ الذَّاتِيَّةِ" (الضَّمِيرِ الدِّينِيِّ):
يَخْلُقُ هَذَا التَّحْذِيرُ حَالَةً مِنَ الْيَقَظَةِ الدَّائِمَةِ، فَالْخَوْفُ مِنَ الْمَوْتِ حَالَ الْغَفْلَةِ يُحَوِّلُ الضَّمِيرَ إِلَى "حَارِسٍ قَلْبِيٍّ" يَمْنَعُ الْجَوَارِحَ مِنَ الِانْزِلَاقِ. فَالْأَخْلَاقُ هُنَا لَيْسَتْ قَوَانِينَ جَافَّةً، بَلْ هِيَ حَيَاءٌ مِنْ "الْمَوْلَى" أَنْ يَجِدَ عَبْدَهُ هَارِباً مِنْ رِحَابِ طَاعَتِهِ إِلَى أَوْحَالِ مَعْصِيَتِهِ.
إِنَّ هَذَا النَّصَّ يُؤَسِّسُ لِـ "أَخْلَاقِ الِارْتِحَالِ"؛ وَهِيَ أَنْ يَعِيشَ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا بِجَسَدِهِ وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْآخِرَةِ. فَالْخُرُوجُ مِنْ ذُلِّ الْإِبَاقِ إِلَى عِزِّ الِانْقِيَادِ هُوَ جَوْهَرُ الْحُرِّيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ، حَيْثُ يَتَحَرَّرُ الْعَبْدُ مِنْ سُلْطَةِ "الْأَشْيَاءِ" لِيَسْكُنَ فِي حِمَى "رَبِّ الْأَرْبَابِ".

الْمَطْلَبُ السَّادِسُ: الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ وَالرِّوَائِيَّةُ (مِحْوَرُ الْحَذَرِ وَالِاسْتِقَامَةِ)

تَتَجَلَّى هَذِهِ الرُّبَاعِيَّةُ كَمَنَاظِيرَ مَعْرِفِيَّةٍ تَرْصُدُ حَرَكَةَ السَّالِكِ بَيْنَ "زَمَانِ التَّكْلِيفِ" وَ"آنِ الِارْتِحَالِ"، مُحَذِّرَةً مِنَ الِانْقِطَاعِ عَنِ الْمَبْدَأِ الْأَوَّلِ:
أَوَّلًا: مِنَ الْأُفُقِ التَّنْزِيلِيِّ (بَقَاءُ الِاتِّصَالِ وَنَفْيُ الشَّتَاتِ)
دَيْمُومَةُ التَّسْلِيمِ وَصِيَانَةُ الْعَاقِبَةِ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (١)؛ وَهُوَ الِاسْتِحْضَارُ الْقُرْآنِيُّ لِضَرُورَةِ الِاتِّصَالِ الْوُجُودِيِّ بِالْحَقِّ؛ فَالْمَوْتُ لَيْسَ عَدَماً بَلْ هُوَ (انْتِقَالُ الصُّورَةِ) مِنَ النَّاسُوتِ إِلَى الْمَلَكُوتِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْمَوْتِ حَالَ "الْإِبَاقِ" (الْهُرُوبِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ) هُوَ صِيَانَةٌ لِلرُّوحِ مِنْ أَنْ تُحْشَرَ عَلَى هَيْئَةِ الِانْفِصَالِ عَنِ النُّورِ الْأَزَلِيِّ.
حِجَابُ الْكَثْرَةِ وَعِلَّةُ الذُّهُولِ: يَقُولُ تَعَالَى: «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» (٢)؛ تَشْخِيصٌ فَلْسَفِيٌّ لِعِلَّةِ الِانْقِطَاعِ عَنِ "الْوَاحِدِ" بِالِاشْتِغَالِ بِـ "الْمُتَعَدِّدِ"؛ حَيْثُ تَنْصَرِفُ الْهِمَّةُ إِلَى أَعْرَاضِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ، فَيَبْغَتُ الْأَجَلُ النَّفْسَ وَهِيَ مُسْتَغْرِقَةٌ فِي غُرُورِ (الْكَمِّ) بَعِيدَةٌ عَنْ إِدْرَاكِ جَوْهَرِ (الْكَيْفِ) الْإِيمَانِيِّ.
ثَانِيًا: مِنَ الْإِشْرَاقِ الرِّوَائِيِّ (تَحَقُّقُ الْقَصْدِيَّةِ وَإِيقَاعُ الزَّمَنِ)
وِحْدَةُ الْفِعْلِ وَانْعِكَاسُ الْأَثَرِ: رُوِيَ فِي الْأَثَرِ: «الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ» (٣)؛ حَيْثُ تُعَدُّ الدُّنْيَا مَجْلَى لِلْبَذْرِ وَالْآخِرَةُ مَجْلَى لِلْحَصَادِ؛ وَالْإِبَاقُ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) هُنَا هُوَ (الِاغْتِرَابُ عَنِ الذَّاتِ) بِتَرْكِ مَزْرَعَةِ الْقَلْبِ لِلْخَرَابِ وَتَبْدِيدِ الطَّاقَةِ الْإِمْكَانِيَّةِ فِي لَهْوِ الْفَنَاءِ.

آنِيَّةُ الِاسْتِعْدَادِ وَضَبْطُ الْإِيقَاعِ: رُوِيَ عَنِ الصَّادِقِ عَنْ آبَائِهِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ): «اعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَداً» (٤)؛ وَهُوَ تَوْجِيهٌ عِرْفَانِيٌّ لِضَبْطِ (زَمَنِ السَّالِكِ)، بِحَيْثُ يَعِيشُ بَيْنَ "رَجَاءِ الْبَقَاءِ" لِتَجْوِيدِ الْعَمَلِ وَ"حَذَرِ الْفَنَاءِ" لِحِفْظِ الِاسْتِقَامَةِ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَهُ "الْآنُ الْأَخِيرُ" وَهُوَ فِي سَكْرَةِ الْغَفْلَةِ الَّتِي نَبَّهَ عَلَيْهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ).

الْمَطْلَبُ السَّابِعُ: الْفَوَائِدُ الْمُتَرَتِّبَةُ (ثَمَرَاتُ الْيَقَظَةِ السُّلُوكِيَّةِ)

تَصْحِيحُ الْقَصْدِ: الْحَذَرُ مِنَ الْإِبَاقِ يَمْنَعُ الِاسْتِغْرَاقَ الْمُؤَدِّيَ لِلْخُرُوجِ عَنْ زِيِّ الْعُبُودِيَّةِ.
السَّكِينَةُ عِنْدَ الرَّحِيلِ: الْمُتَعَاهِدُ لِرَبِّهِ لَا يَخْشَى الْمَوْتَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ آبِقاً، بَلْ هُوَ زَائِرٌ مُشْتَاقٌ رَاجِعٌ إِلَى مَوْلَاهُ.
الزُّهْدُ الْحَقِيقِيُّ: فَهْمُ خُطُورَةِ طَلَبِ الدُّنْيَا عِنْدَ الْمَوْتِ يُورِثُ زُهْداً قَلْبِيّاً يُنَظِّمُ السَّعْيَ فِيهَا بِمِقْدَارِ الْحَاجَةِ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: الِانْقِيَادُ سَبِيلُ النَّجَاةِ

يَلْخَصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ كَمَالَ الْإِنْسَانِ يَنْعَقِدُ بِالْحَذَرِ الدَّائِمِ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا الْمُنْسِيَةِ لِلْمَعَادِ. إِنَّ التَّوْجِيهَ الْعَلَوِيَّ فِي هَذَا النَّصِّ يَرْسُمُ سِيَاجاً لِلْعَبْدِ يَحْمِيهِ مِنَ التَّشَرُّدِ الرُّوحِيِّ، لِيَلْقَى رَبَّهُ وَهُوَ رَاضٍ مَرْضِيٌّ، قَدْ جَعَلَ وَجْهَتَهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ إِبَاقٍ يَحْجُبُهُ عَنْ نُورِ الْقُدْسِ.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَان، الْآيَةُ ١٠٢.
(٢) سُورَةُ التَّكَاثُر، الْآيَتَانِ ١-٢.
(٣) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٦٧، ص ٢٢٥.
(٤) مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهُ، ج ٤، ص ٣٥٤.

تَحْصِينُ الِانْقِيَادِ وَنَظَرِيَّةُ السِّنْخِيَّةِ: دِرَاسَةٌ فِي أَثَرِ الصُّحْبَةِ عَلَى كَمَالِ النَّفْسِ

«وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ»
يُمَثِّلُ هَذَا التَّحْذِيرُ الْعَلَوِيُّ رُكْناً أَسَاسِيّاً فِي عِلْمِ "سِيَاسَةِ النَّفْسِ"، حَيْثُ يَنْتَقِلُ بِالْعَبْدِ مِنْ مَقَامِ الْفِعْلِ الْفَرْدِيِّ إِلَى مَقَامِ "التَّحْصِينِ الِاجْتِمَاعِيِّ". فَلَمَّا كَانَتِ النَّفْسُ بَشَرِيَّةً بِطَبْعِهَا، قَابِلَةً لِلانْفِعَالِ وَالتَّأَثُّرِ، جَاءَ هَذَا النَّصُّ لِيَضَعَ حَدّاً فَاصِلاً بَيْنَ طَلَبِ الْكَمَالِ وَبَيْنَ مُعَاشَرَةِ أَهْلِ النَّقْصِ.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: التَّأْصِيلُ الْفَلْسَفِيُّ (قَانُونُ السِّنْخِيَّةِ وَالْمُجَانَسَةِ)

تَقُومُ الْقَاعِدَةُ الْفَلْسَفِيَّةُ عَلَى أَنَّ "النُّفُوسَ تَنْجَذِبُ إِلَى مُشَاكِلَاتِهَا". الْمُصَاحَبَةُ لَيْسَتْ فِعْلاً عَرَضِيّاً، بَلْ هِيَ تَفَاعُلٌ بَيْنَ جَوْهَرَيْنِ؛ فَإِذَا صَاحَبَ السَّالِكُ الْفُسَّاقَ، وَجَدَتِ الْقُوَى الشَّهَوِيَّةُ فِيهِ نَظِيراً خَارِجِيّاً يُقَوِّيهَا. الِالْتِحَاقُ هُنَا هُوَ (الِالْتِحَاقُ الرُّتْبِيُّ)؛ أَيْ أَنَّ رُتْبَةَ النَّفْسِ تَنْحَطُّ لِتُجَانِسَ رُتْبَةَ الشَّرِّ فِي الصَّاحِبِ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: التَّأْصِيلُ الْعِرْفَانِيُّ (حِجَابُ الْكُدُورَةِ وَانْقِطَاعُ الْفَيْضِ)

عِرْفَانِيّاً، صُحْبَةُ الْأَغْيَارِ (الْفُسَّاقِ) تُورِثُ فِي الْقَلْبِ "كُدُورَةً" تَحْجُبُ عَنْهُ الْفُيُوضَاتِ الرَّحْمَانِيَّةَ. الْفَاسِقُ بَعِيدٌ عَنِ النُّورِ، وَمُصَاحَبَتُهُ تُؤَدِّي إِلَى (سِيَاهَةِ السِّرِّ)؛ حَيْثُ يَلْتَحِقُ الْعَبْدُ بِمَقَامِ "الْبُعْدِ" بَعْدَ أَنْ كَانَ يَطْلُبُ مَقَامَ "الْقُرْبِ". الشَّرُّ هُنَا هُوَ (الْحِجَابُ الظُّلْمَانِيُّ).

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: التَّحْلِيلُ الْبَلَاغِيُّ (فَنُّ الْبَيَانِ وَإِيجَازُ التَّحْذِيرِ)

يَتَجَلَّى سِحْرُ الْبَلَاغَةِ الْعَلَوِيَّةِ فِي هَذَا النَّصِّ مِنْ خِلَالِ:
أُسْلُوبُ التَّحْذِيرِ (إِيَّاكَ): حَيْثُ جَاءَ بِصِيغَةٍ تَقْتَضِي شِدَّةَ الِاحْتِرَازِ، وَفِيهِ حَذْفٌ لِلْفِعْلِ تَقْدِيرُهُ "بَاعِدْ"، مِمَّا يُفِيدُ الْفَوْرِيَّةَ.
تَنْكِيرُ "الْفُسَّاقِ": لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الْفِسْقِ كَفِيلٌ بِإِفْسَادِ الصُّحْبَةِ، فَلَا مَجَالَ لِلْمُهَادَنَةِ.
الْقَاعِدَةُ الْكُلِّيَّةُ (الْجُمْلَةُ التَّعْلِيلِيَّةُ): قَوْلُهُ «الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ» هُوَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ؛ حَيْثُ اسْتَخْدَمَ اسْمَ الْمَفْعُولِ (مُلْحَقٌ) لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الِالْتِحَاقَ أَمْرٌ ثَابِتٌ وَلَازِمٌ لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْمُجَانَسَةِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: التَّأْصِيلُ الْأَخْلَاقِيُّ (كِيمْيَاءُ الْعَدْوَى وَحِمَايَةُ الْفَضِيلَةِ)

يُؤَسِّسُ هَذَا النَّصُّ لِمَنْظُومَةٍ فِي "الْأَخْلَاقِ الْوِقَائِيَّةِ"، حَيْثُ يَعْتَبِرُ الْبِيئَةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ هِيَ "الْمَيْدَانُ" الَّذِي تَتَشَكَّلُ فِيهِ مَلَكَاتُ الْإِنْسَانِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ:
1. نَظَرِيَّةُ "السَّرِقَةِ الْخَفِيَّةِ" لِلْأَخْلَاقِ:
مِنْ مَنْظُورٍ أَخْلَاقِيٍّ، "النَّفْسُ سَرَّاقَةٌ"؛ فَالْمُخَالَطَةُ لَا تَنْتِجُ تَقْلِيداً وَاعِياً فَحَسْبُ، بَلْ تُسَرِّبُ الرَّذَائِلَ إِلَى الْبَاطِنِ بِالتَّدْرِيجِ وَالتَّغَلْغُلِ. إِنَّ قَوْلَهُ «الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ» يُنَبِّهُ إِلَى أَنَّ الْفَسَادَ الْأَخْلَاقِيَّ يَمْلِكُ خَاصِّيَّةً جَاذِبَةً، فَالْمُتَسَاهِلُ فِي صُحْبَةِ الْفُسَّاقِ يَفْقِدُ مَعَ الْوَقْتِ "حَاسَّةَ الِاسْتِنْكَارِ"، فَيَصِيرُ مَا كَانَ يَرَاهُ قَبِيحاً مَأْلُوفاً، وَهَذَا هُوَ مَبْدَأُ الِانْحِلَالِ التَّدْرِيجِيِّ لِلْقِيَمِ.

2. تَحْصِينُ "الْغَيْرَةِ عَلَى النَّفْسِ":
الْأَخْلَاقُ الْعَلَوِيَّةُ تَدْعُو إِلَى نَوْعٍ مِنَ "الْأَنَانِيَّةِ الْمَمْدُوحَةِ"، وَهِيَ التَّعَالِي عَنْ مَوَاطِنِ الدَّنَاءَةِ. فَالْإِنْسَانُ الَّذِي يَحْتَرِمُ كَرَامَتَهُ الْأَخْلَاقِيَّةَ يَتَرَفَّعُ عَنْ مُجَالَسَةِ مَنْ يَهْتِكُونَ سِتْرَ الْعُبُودِيَّةِ. فَالْمُصَاحَبَةُ هُنَا هِيَ "تَزْكِيَةٌ" لِلْمُصَاحَبِ، وَالْمُؤْمِنُ لَا يَضَعُ خَتْمَ رِضَاهُ عَلَى سُلُوكِ الْفَاسِقِ بِمُجَالَسَتِهِ.
3. مَسْؤُولِيَّةُ "الْقُدْوَةِ وَالتَّأْثِيرِ":
يُحَمِّلُ هَذَا الْمَطْلَبُ الْإِنْسَانَ مَسْؤُولِيَّةَ اخْتِيَارِ "الْمِرْآةِ" الَّتِي يَنْظُرُ فِيهَا إِلَى نَفْسِهِ. فَالْفَاسِقُ مِرْآةٌ مُشَوَّهَةٌ، وَمُصَاحَبَتُهُ تَعْنِي قُبُولَ التَّشَوُّهِ كَمِعْيَارٍ لِلْحَيَاةِ. بَيْنَمَا الِابْتِعَادُ عَنْهُمْ هُوَ فِعْلٌ أَخْلَاقِيٌّ يَهْدِفُ إِلَى اسْتِبْقَاءِ "الطَّهَارَةِ الْفِطْرِيَّةِ" بَعِيداً عَنْ أَدْخِنَةِ الْأَهْوَاءِ.
4. صِيَانَةُ "الْمُرُوءَةِ":
الْمُرُوءَةُ خُلُقٌ جَامِعٌ يَنْهَدِمُ بِمُصَاحَبَةِ مَنْ لَا يُرَاعِي حُدُودَ اللهِ. فَالْمُلْحَقِيَّةُ فِي الشَّرِّ تَعْنِي أَنَّ الْوَصْمَةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى الْفَاعِلِ، بَلْ تَمْتَدُّ لِلْمُشَاهِدِ الرَّاضِي وَالصَّاحِبِ الْمُؤَانِسِ. فَالِاعْتِزَالُ هُنَا هُوَ شَجَاعَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ فِي رَفْضِ الِانْسِيَاقِ خَلْفَ الْجَمَاعَةِ.
إِنَّ "الْمُصَاحَبَةَ" فِي مَدْرَسَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ (ع) هِيَ عَمَلِيَّةُ "تَمَثُّلٍ"؛ فَمَنْ أَرَادَ جَمَالَ الْخُلُقِ، فَلْيَحْذَرْ مِنْ "مُجَاوَرَةِ الْقُبْحِ". لِأَنَّ الطِّبَاعَ تَتَسَرَّقُ، وَمَنْ جَالَسَ جَانَسَ، وَمَنْ جَانَسَ نَافَسَ فِي صِفَاتِ مَنْ جَالَسَ. فَالِانْتِقَاءُ لَيْسَ تَمْيِيزاً فِئَوِيّاً، بَلْ هُوَ "أَمْنٌ أَخْلَاقِيٌّ" لِلرُّوحِ.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ وَالرِّوَائِيَّةُ (مِحْوَرُ الِاعْتِزَالِ وَالتَّأْثِيرِ)

تَقُومُ هَذِهِ الرُّبَاعِيَّةُ عَلَى فَلْسَفَةِ (السَّرَيَانِ الصِّفَاتِيِّ)؛ حَيْثُ تَتَأَثَّرُ النَّفْسُ تَبعاً لِمَا تُجَالِسُ، مِمَّا يَسْتَوْجِبُ حِيطَةً وُجُودِيَّةً لِحِمَايَةِ جَوْهَرِ الِانْقِيَادِ مِنَ الِانْتِكَاسِ:
أَوَّلًا: مِنَ الْأُفُقِ التَّنْزِيلِيِّ (حِمَايَةُ الْوَعْيِ وَنَفْيُ الِاتِّحَادِ بِالْبَاطِلِ)
قَطْعُ الِانْسِيَاقِ الْفِكْرِيِّ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» (١)؛ وَهُوَ أَمْرٌ بِالِاعْتِزَالِ الْمَكَانِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ عِنْدَ اسْتِبَاحَةِ الْقَدَاسَةِ؛ لِقَطْعِ سَبِيلِ "الِالْتِحَاقِ" بِأَهْلِ الزَّيْغِ؛ فَالْإِعْرَاضُ هُنَا هُوَ فِعْلٌ وُجُودِيٌّ يَصُونُ الْمَلَكَاتِ النَّفْسِيَّةَ مِنَ التَّلَوُّثِ بِشُبُهَاتِ الْخَائِضِينَ الَّتِي تَعْلَقُ بِالْخَيَالِ.
حَسْرَةُ الْمُحَاكَاةِ الظُّلْمَانِيَّةِ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً» (٢)؛ وَهُوَ تَجْسِيدٌ لِمَآلِ (الِالْتِحَاقِ الشُّعُورِيِّ) بِأَهْلِ الْقَطِيعَةِ؛ حَيْثُ يَكْتَشِفُ السَّالِكُ بَعْدَ كَشْفِ الْغِطَاءِ أَنَّ تِلْكَ الْخُلَّةَ كَانَتْ حِجَاباً صَرَفَهُ عَنْ هُوِيَّتِهِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَوْقَعَهُ فِي غُرْبَةِ الْفَنَاءِ.
ثَانِيًا: مِنَ الْإِشْرَاقِ الرِّوَائِيِّ (مَبْدَأُ الْمُسَانَخَةِ وَسَرَيَانِ الْأَثَرِ)
قَانُونُ الِانْعِكَاسِ الصِّفَاتِيِّ: رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» (٣)؛ وَهُوَ تَقْرِيرٌ لِقَاعِدَةِ (الْمُسَانَخَةِ)؛ حَيْثُ تَنْطَبِعُ نَفْسُ السَّالِكِ بِصِبْغَةِ مَنْ تُخَالِلُ؛ فَالْمُجَانَسَةُ فِي الظَّاهِرِ تَقُودُ حَتْماً إِلَى الِاتِّحَادِ فِي الْمَسِيرِ وَالْمَصِيرِ، وَهُوَ مَا حَذَّرَ مِنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي تَنْبِيهِهِ عَلَى خُطُورَةِ (الِالْتِحَاقِ).
ظُلْمَةُ الِانْعِكَاسِ وَانْتِكَاسُ الْبَصِيرَةِ: رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «مُجَالَسَةُ الْأَشْرَارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْأَخْيَارِ» (٤)؛ وَهِيَ إِشَارَةٌ دَقِيقَةٌ إِلَى (سَرَيَانِ الظُّلْمَةِ)؛ حَيْثُ يَتَرَاكَمُ سَوَادُ الْأَشْرَارِ عَلَى مِرْآةِ الْقَلْبِ، فَيَنْقَلِبُ مِيزَانُ الْإِدْرَاكِ لَدَى الْإِنْسَانِ حَتَّى يَرَى النُّورَ ظُلْمَةً، وَهُوَ أَقْصَى دَرَجَاتِ الِاغْتِرَابِ عَنِ الْفِطْرَةِ.

الْمَطْلَبُ السَّادِسُ: الْفَوَائِدُ الْمُتَرَتِّبَةُ (ثَمَرَاتُ الْوِقَايَةِ السُّلوكيَّةِ)

حِفْظُ الْمَلَكَاتِ: الِابْتِعَادُ عَنِ الْفُسَّاقِ يَحْمِي الْفَضَائِلَ مِنَ الذَّوَبَانِ فِي رَذَائِلِ الْآخَرِينَ.
نَقَاءُ التَّوَجُّهِ: خُلُوُّ الصُّحْبَةِ مِنَ الشَّرِّ يَجْعَلُ السَّيْرَ إِلَى اللهِ خَالِصاً دُونَ عَوَائِقَ.
تَعْزِيزُ السِّنْخِيَّةِ مَعَ الصَّالِحِينَ: فَمَنْ تَرَكَ شَرّاً، الْتَحَقَ بِأَهْلِ الْخَيْرِ رُتْبَةً وَمَقَاماً.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: وِقَايَةُ السِّرِّ

يَلْخَصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ كَمَالَ الطَّاعَةِ يَقْتَضِي سَدَّ مَنَافِذِ الشَّرِّ، وَأَكْبَرُهَا صُحْبَةُ مَنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ اللَّهِ. إِنَّ التَّحْذِيرَ الْعَلَوِيَّ يَعْمَلُ كَـ "حِصْنٍ حَصِينٍ" لِلْبَصِيرَةِ، لِيَبْقَى السَّالِكُ بَعِيداً عَنْ كُلِّ (الْتِحَاقٍ) يُكَدِّرُ صَفَاءَ عُبُودِيَّتِهِ، مُتَحَرِّراً مِنْ سُلْطَةِ الْأَغْيَارِ لِيَتَّصِلَ بِالْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ الْأَنْعَام، الْآيَةُ ٦٨.
(٢) سُورَةُ الْفُرْقَان، الْآيَتَانِ ٢٧-٢٨.
(٣) وَسَائِلُ الشِّيعَةِ، ج ١٢، ص ٩.
(٤) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٧١، ص ١٩٧.

رُكْنُ التَّعْظِيمِ وَوَلَاءُ الْمَحَبَّةِ: دِرَاسَةٌ فِي تَوَازُنِ الْهَيْبَةِ وَالْمَوَدَّةِ

«وَوَقِّرِ اللَّهَ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ»
يَجْمَعُ هَذَا النَّصُّ الْعَلَوِيُّ بَيْنَ أَدَبَيْنِ جَوْهَرِيَّيْنِ فِي السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ: "أَدَبُ الْحَضْرَةِ" الْمُتَمَثِّلُ فِي التَّوْقِيرِ، وَ"أَدَبُ الْوُصْلَةِ" الْمُتَمَثِّلُ فِي مَحَبَّةِ أَوْلِيَائِهِ. فَلَمَّا كَانَ التَّوْقِيرُ حَارِساً لِلْعَبْدِ مِنَ الِاجْتِرَاءِ، كَانَتِ الْمَحَبَّةُ جَاذِباً لَهُ نَحْوَ مَنَازِلِ الْقُرْبِ.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: التَّأْصِيلُ الْفَلْسَفِيُّ (رُتْبَةُ التَّعْظِيمِ وَسِنْخِيَّةُ الْوَلَاءِ)

تَقُومُ الْفَلْسَفَةُ هُنَا عَلَى مَبْدَإِ "الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ"؛ فَالتَّوْقِيرُ هُوَ اعْتِرَافٌ عَقْلِيٌّ بِعَظَمَةِ الْعِلَّةِ الْأُولَى (اللَّهِ) الَّتِي لَا تُدْرِكُهَا الْأَوْهَامُ. أَمَّا مَحَبَّةُ أَحِبَّائِهِ، فَهِيَ بَحْثٌ عَنِ "الْمُشَاكَلَةِ"؛ لِأَنَّ النَّفْسَ تَنْجَذِبُ إِلَى مَنْ يَحْمِلُ نُورَ الْمَحْبُوبِ. فَتَوْقِيرُ اللَّهِ هُوَ تَعْظِيمٌ لِلْجَمَالِ وَالْجَلَالِ الْمُطْلَقِ، وَمَحَبَّةُ أَحِبَّائِهِ هِيَ اتِّبَاعٌ لِلْآثَارِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُؤَثِّرِ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: التَّأْصِيلُ الْعِرْفَانِيُّ (مَقَامُ الْهَيْبَةِ وَفَنَاءُ الْمَوَدَّةِ)

عِرْفَانِيّاً، "التَّوْقِيرُ" هُوَ مَقَامُ الْهَيْبَةِ الَّذِي يُورِثُ السُّكُونَ وَالْأَدَبَ فِي الْمَحْضَرِ الْإِلَهِيِّ، بِحَيْثُ لَا يَرَى الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ وُجُوداً أَمَامَ عَظَمَتِهِ. أَمَّا "أَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ" فَهُوَ سِرُّ (الْوَلَايَةِ)؛ حَيْثُ يَرَى الْعَارِفُ أَنَّ مَحَبَّةَ الْوَلِيِّ هِيَ عَيْنُ مَحَبَّةِ اللَّهِ، لِأَنَّ الْأَحِبَّاءَ هُمْ مَرَايَا مَصْقُولَةٌ تَعْكِسُ صِفَاتِ الْحَقِّ، فَالْمَحَبَّةُ لَهُمْ تَوْحِيدٌ فِي الْقَصْدِ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: التَّحْلِيلُ الْبَلَاغِيُّ (جَمَالُ الْأَمْرِ وَدِقَّةُ الصِّلَةِ)

يَتَجَلَّى الْإِعْجَازُ الْبَلَاغِيُّ فِي:
الِاقْتِصَارُ عَلَى فِعْلَيِ الْأَمْرِ (وَقِّرْ، أَحْبِبْ): لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ نَدْبِيّاً بَلْ هُوَ قِوَامُ الدِّينِ.
الِانْتِقَالُ مِنَ الْخَالِقِ إِلَى الْمَخْلُوقِ: بِعَطْفِ (أَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ) عَلَى (وَقِّرِ اللَّهَ)، لِإِثْبَاتِ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ لَا يَمُرُّ إِلَّا عَبْرَ أَوْلِيَائِهِ، وَأَنَّ الْمَحَبَّةَ فَرْعٌ عَنِ التَّعْظِيمِ.
تَكْرَارُ مَادَّةِ الْحُبِّ (أَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ): لِتَأْكِيدِ السِّنْخِيَّةِ وَالْمُجَانَسَةِ بَيْنَ الْمُحِبِّ وَالْمَحْبُوبِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: التَّأْصِيلُ الْأَخْلَاقِيُّ (فِقْهُ الْمُعَامَلَةِ وَتَهْذِيبُ الْمَلَكَاتِ)

يُعَدُّ هَذَا النَّصُّ مِعْيَاراً لِصِيَاغَةِ الْخُلُقِ الْإِنْسَانِيِّ، حَيْثُ يَنْصَهِرُ "التَّوْقِيرُ" وَ"الْمَحَبَّةُ" لِيُنْتِجَا سُلُوكاً مُتَوَازِناً بَعِيداً عَنِ الْجَفَاءِ أَوْ الْغُلُوِّ:
1. الِاعْتِدَالُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ:
أَخْلَاقِيّاً، "وَقِّرِ اللَّهَ" تُمَثِّلُ جَانِبَ الْحَذَرِ وَالتَّقْوَى الَّتِي تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنَ التَّغَطْرُسِ أَوِ الِاغْتِرَارِ بِالْعَمَلِ. أَمَّا "أَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ" فَهِيَ بَابُ الرَّجَاءِ وَالْأُنْسِ. هَذَا التَّوَازُنُ يَحْمِي الشَّخْصِيَّةَ مِنَ الِانْكِسَارِ الْيَائِسِ (عِنْدَ شُهُودِ الْعَظَمَةِ وَحْدَهَا) وَمِنَ الِاجْتِرَاءِ الْمُشِينِ (عِنْدَ ادِّعَاءِ الْمَحَبَّةِ دُونَ تَوْقِيرٍ).
2. صِدْقُ الِانْتِسَاءِ (الْأَخْلَاقُ بِالْمُحَاكَاةِ):

إنَّ الْأَمْرَ بِمَحَبَّةِ الْأَحِبَّاءِ لَيْسَ عَاطِفَةً مُجَرَّدَةً، بَلْ هُوَ "مَنْهَجٌ تَرْبَوِيٌّ". فَالْمُحِبُّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ يَتَشَرَّبُ أَخْلَاقَهُمْ بِحُكْمِ الِانْجِذَابِ الْقَلْبِيِّ. فَالْمَحَبَّةُ هُنَا تُحَوِّلُ الْأَخْلَاقَ مِنْ "تَكَلُّفٍ وَتَصَنُّعٍ" إِلَى "طَبْعٍ وَسِنْخِيَّةٍ"، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُحْشَرُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ خُلُقاً وَمَسْلَكاً.

3. تَهْذِيبُ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهْوِيَّةِ:

بِالتَّوْقِيرِ: تَنْكَسِرُ كِبْرِيَاءُ النَّفْسِ وَتَعَالِيهَا (الْعُجْبُ)، فَلَا يَرَى الْعَبْدُ لِنَفْسِهِ فَضْلاً عَلَى الْخَلْقِ إِجْلَالاً لِلْخَالِقِ.

بِالْمَحَبَّةِ: تَتَهَذَّبُ دَوَافِعُ الْكُرْهِ وَالْبُغْضَاءِ، فَيُصْبِحُ مِيزَانُ "الْحُبِّ فِي اللَّهِ" هُوَ الْقَائِدُ لِلْعَلَاقَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، مِمَّا يُطَهِّرُ الْقَلْبَ مِنَ الْحَسَدِ وَالضَّغِينَةِ.

4. أَدَبُ الْعِشْرَةِ مَعَ الْخَلْقِ:

حِينَ يُوَقِّرُ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ، يَنْظُرُ إِلَى الْخَلْقِ بِعَيْنِ "الرَّحْمَةِ" لِأَنَّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، وَيَنْظُرُ إِلَى الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ بِعَيْنِ "الْإِكْرَامِ" لِأَنَّهُمْ أَحِبَّاؤُهُ. فَتَنْعَكِسُ هَذِهِ الرُّؤْيَةُ الْكَوْنِيَّةُ عَلَى تَعَامُلِهِ الْيَوْمِيِّ تَوَاضُعاً، وَلِيناً، وَوَفَاءً.

إِنَّ "التَّوْقِيرَ" يُورِثُ الْوَرَعَ، وَ"الْمَحَبَّةَ" تُورِثُ السَّخَاءَ (سَخَاءُ النَّفْسِ وَالْعَاطِفَةِ). وَمَنِ اجْتَمَعَ فِيهِ الْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ وَالسَّخَاءُ بِالْوُدِّ لِأَوْلِيَائِهِ، فَقَدْ حَازَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ أَطْرَافِهَا.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ وَالرِّوَائِيَّةُ (مِحْوَرُ التَّعْظِيمِ وَالْوَلَاءِ)

تَقُومُ هَذِهِ الرُّبَاعِيَّةُ عَلَى تَرْسِيخِ (مَرْكَزِيَّةِ الْحَقِّ) فِي الْوِجْدَانِ؛ حَيْثُ يَنْبَثِقُ الْوَلَاءُ مِنْ تَعْظِيمِ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَيَسْرِي إِلَى مَظَاهِرِ كَمَالِهِ فِي خَلْقِهِ:

أَوَّلًا: مِنَ الْأُفُقِ التَّنْزِيلِيِّ (تَجَلِّي الْهَيْبَةِ وَسِرِّ الِاتِّبَاعِ)

عِتَابُ الْجَلَالِ وَيَقَظَةُ الْفِطْرَةِ: يَقُولُ تَعَالَى: «مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً» (١)؛ وَهُوَ نِدَاءٌ عُلْوِيٌّ يَسْتَنْهِضُ كَامِنَ الْفِطْرَةِ لِيُعَاتِبَ النَّفْسَ عَلَى ذُهُولِهَا عَنْ مَقَامِ "الْهَيْبَةِ الذَّاتِيَّةِ"؛ فَالْوَقَارُ هُنَا هُوَ سُكُونُ الْقَلْبِ وَخُضُوعُ الْمَلَكَاتِ عِنْدَ اسْتِشْعَارِ الْعَظَمَةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي لَا يُدَانِيهَا سُلْطَانٌ.

بُرْهَانُ الْمَحَبَّةِ وَالتَّحَقُّقُ بِالِاتِّبَاعِ: يَقُولُ تَعَالَى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» (٢)؛ وَهِيَ الْقَاعِدَةُ الْوُجُودِيَّةُ الَّتِي تَرْبِطُ الْمَحَبَّةَ الْغَيْبِيَّةَ بِالِاتِّبَاعِ الشُّهُودِيِّ؛ فَلَا يَتَحَقَّقُ وَلَاءُ "الْأَصْلِ" إِلَّا بِتَعْظِيمِ "الْآيَةِ" وَاتِّبَاعِ الصَّفْوَةِ مِنَ الرَّسُولِ وَآلِهِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)، لِيَكُونَ الْحُبُّ فَيْضاً متبادلاً بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ.

ثَانِيًا: مِنَ الْإِشْرَاقِ الرِّوَائِيِّ (مِعْيَارُ الصِّدْقِ وَتَلَاشِي الْأَغْيَارِ)

تَوْحِيدُ الْمَشَاعِرِ وَتَجْرِيدُ الْوَلَاءِ: رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ» (٣)؛ وَهُوَ بَيَانٌ لِتَوْحِيدِ الْقُوَى النُّزُوعِيَّةِ، حَيْثُ يَتَجَرَّدُ الْوَلَاءُ (أَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ) عَنِ الْأَغْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ، لِيَكُونَ مَدَارُ الِانْجِذَابِ وَالنُّفُورِ مَحْضَ انْعِكَاسٍ لِمَحَبَّةِ الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ الْمُطْلَقِ.

الْفَنَاءُ فِي الْعَظَمَةِ وَانْكِسَارُ الْأَوْهَامِ: رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي وَصْفِ الْمُتَّقِينَ: «عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ» (٤)؛ وَهُوَ كَمَالُ التَّوْقِيرِ الْعِرْفَانِيِّ؛ حَيْثُ يَسْتَوْلِي شُهُودُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى لُبِّ السَّالِكِ، فَتَضْمَحِلُّ أَمَامَ بَصِيرَتِهِ كُلُّ الْقُدُرَاتِ الْوَهْمِيَّةِ لِلْأَغْيَارِ، وَيَبْقَى الْوَلَاءُ خَالِصاً لِمَنْ لَهُ الْحَقِيقَةُ الْوُجُودِيَّةُ وَحْدَهُ.

الْمَطْلَبُ السَّادِسُ: الْفَوَائِدُ الْمُتَرَتِّبَةُ (ثَمَرَاتُ الْهَيْبَةِ وَالْمَوَدَّةِ)

الِانْضِبَاطُ السُّلُوكِيُّ: التَّوْقِيرُ يَمْنَعُ مِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِحُدُودِ اللَّهِ.

السَّكِينَةُ الْقَلْبِيَّةُ: مَحَبَّةُ الْأَوْلِيَاءِ تُورِثُ الطُّمَأْنِينَةَ وَتُسَهِّلُ سُبُلَ الْوُصُولِ.

تَحْقِيقُ الْإِيمَانِ: فَلَا يَكْمُلُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَحِبَّاؤُهُ أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلْقِ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: وِحْدَةُ التَّعَلُّقِ

يَلْخَصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ "تَوْقِيرَ اللَّهِ" هُوَ مِحْوَرُ الْعُبُودِيَّةِ، وَ"مَحَبَّةَ أَحِبَّائِهِ" هِيَ رُوحُ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ. إِنَّ التَّوْجِيهَ الْعَلَوِيَّ يَصْنَعُ مِنْ هَذَا الْمَزِيجِ شَخْصِيَّةً مُؤْمِنَةً تَعِيشُ بَيْنَ (هَيْبَةِ الْخَالِقِ) وَ(أُنْسِ الْوَلَايَةِ)، لِتَكُونَ عَاقِبَتُهَا الِالْتِحَاقَ بِمَنْ أَحَبَّتْ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ نُوح، الْآيَةُ ١٣.
(٢) سُورَةُ آلِ عِمْرَان، الْآيَةُ ٣١.
(٣) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٦٦، ص ٢٥٢.
(٤) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، الْخُطْبَةُ ١٩٣ (خُطْبَةُ الْمُتَّقِينَ).

كَسْرُ سُلْطَانِ الْغَضَبِ وَتَحْطِيمُ جُنُودِ الْوَهْمِ: دِرَاسَةٌ فِي سِيَاسَةِ النَّفْسِ وَدَحْرِ الْغَوَايةِ

«وَاحْذَرِ الْغَضَبَ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ، وَالسَّلَامُ»
بَعْدَ أَنْ أَرَّسَ الْإِمَامُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَوَاعِدَ الطَّاعَةِ وَالرِّفْقِ، يَخْتِمُ هَذِهِ الْوَصَايَا بِالتَّحْذِيرِ مِنْ "آفَةِ الْعَقْلِ" وَهُوَ الْغَضَبُ. فَلَمَّا كَانَ السَّالِكُ يَسْعى لِلِاتِّصَالِ بِالْمَبْدَإِ الْأَعْلَى، فَإِنَّ الْغَضَبَ يَعْمَلُ كَقُوَّةٍ طَارِدَةٍ تَقْطَعُ هَذَا الِاتِّصَالَ.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: التَّأْصِيلُ الْفَلْسَفِيُّ (غَلَبَةُ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَطَمْسُ الْعَقْلِ)

تَقُومُ الْفَلْسَفَةُ السُّلُوكِيَّةُ عَلَى تَرْتِيبِ قُوَى النَّفْسِ؛ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ "الْعَقْلُ" هُوَ الْحَاكِمُ الْمُدَبِّرُ. الْغَضَبُ فَلْسَفِيّاً هُوَ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ لِطَلَبِ الِانْتِقَامِ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى خُرُوجِ "الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ" عَنْ طَاعَةِ الْعَقْلِ.
وَعِنْدَمَا يَنْخَسِفُ نُورُ الْعَقْلِ بِفِعْلِ الْغَضَبِ، يَفْقِدُ الْإِنْسَانُ تَمَيُّزَهُ الْوُجُودِيَّ وَيَصِيرُ مُنْقَاداً لِلِانْفِعَالَاتِ الَّتِي تَهْدِمُ مَا بَنَاهُ مِنْ رِيَاضَةٍ وَتَوْقِيرٍ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: التَّأْصِيلُ الْعِرْفَانِيُّ (نَارُ الْغَضَبِ وَحِجَابُ الْقَلْبِ)

عِرْفَانِيّاً، الْغَضَبُ هُوَ "نَارٌ" مُسْتَعِرَةٌ تُحْرِقُ ثِمَارَ الذِّكْرِ وَالْأُنْسِ. يَرَى الْعُرَفَاءُ أَنَّ الْغَضَبَ يُورِثُ الظُّلْمَةَ فِي السِّرِّ، لِأَنَّهُ يَصْدُرُ عَنْ "رُؤْيَةِ النَّفْسِ" وَالِانْتِصَارِ لَهَا. نِسْبَةُ الْغَضَبِ إِلَى "إِبْلِيسَ" تَعْنِي أَنَّ أَصْلَهُ مِنَ النَّارِ الَّتِي طُرِدَ بِهَا لَعِينُ الْأَزَلِ، فَمَنْ غَضِبَ فَقَدِ اسْتَنْسَخَ صِفَةً شَيْطَانِيَّةً تَحْجُبُهُ عَنْ شُهُودِ الْجَمَالِ الْإِلَهِيِّ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الْمَبْحَثُ الْأَخْلَاقِيُّ (الْغَضَبُ مَنْشَأُ الرَّذَائِلِ)

أَخْلَاقِيّاً، يُعَدُّ الْغَضَبُ "أُمَّ الرَّذَائِلِ"؛ لِأَنَّهُ يَتَفَرَّعُ عَنْهُ الْحِقْدُ، وَالْحَسَدُ، وَالظُّلْمُ، وَالْبَغْيُ. التَّحْذِيرُ مِنْهُ هُوَ دَعْوَةٌ لِاقْتِنَاءِ فَضِيلَةِ "الْحِلْمِ" الَّتِي هِيَ تَمَامُ الْعَقْلِ. الْمَنْهَجُ الْأَخْلَاقِيُّ يَقْتَضِي أَنْ يُعَالَجَ الْغَضَبُ بِالْعِلْمِ (بِتَذَكُّرِ عَاقِبَتِهِ) وَبِالْعَمَلِ (بِتَغْيِيرِ الْحَالَةِ الْبَدَنِيَّةِ)، لِأَنَّ الْأَخْلَاقَ لَا تَسْتَقِيمُ مَعَ طَيْشِ النَّفْسِ وَثَوَرَانِهَا.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: التَّحْلِيلُ الْبَلَاغِيُّ (اسْتِعَارَةُ الْجُنْدِ وَإِيجَازُ الْخَاتِمَةِ)

يَتَجَلَّى الْإِعْجَازُ فِي هَذَا النَّصِّ مِنْ خِلَالِ:
الِاسْتِعَارَةُ التَّمْثِيلِيَّةُ: فِي قَوْلِهِ «جُنْدٌ عَظِيمٌ»؛ حَيْثُ صَوَّرَ الْغَضَبَ كَكِيَانٍ مُنَظَّمٍ يَغْزُو قَلْبَ الْمُؤْمِنِ لِيَحْتَلَّهُ.
الْإِضَافَةُ التَّنْفِيرِيَّةُ: (جُنُودِ إِبْلِيسَ)؛ لِرَبْطِ هَذَا الِانْفِعَالِ بِمَصْدَرِ الشَّرِّ الْمُطْلَقِ.
بَرَاعَةُ الْمَقْطَعِ: خَتْمُ الْوَصِيَّةِ بِقَوْلِهِ «وَالسَّلَامُ»؛ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ "السَّلَامَةَ" الرُّوحِيَّةَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِتَرْكِ الْغَضَبِ.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: الشَّوَاهِدُ التَّنْزِيلِيَّةُ وَالرِّوَائِيَّةُ (مِحْوَرُ الْحِلْمِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ)

تَقُومُ هَذِهِ الرُّبَاعِيَّةُ عَلَى تَرْسِيخِ (سِيَادَةِ الْعَقْلِ) عَلَى الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ؛ حَيْثُ يُعَدُّ الْحِلْمُ جَوْهَرَ الِانْقِيَادِ وَبُرْهَانَ السَّكِينَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي تَعْكِسُ جَمَالَ الِاسْتِقَامَةِ:

أَوَّلًا: مِنَ الْأُفُقِ التَّنْزِيلِيِّ (قَهْرُ الِانْفِعَالِ وَنَفْيُ حِجَابِ الْحَمِيَّةِ)
انْكِسَارُ الْحِدَّةِ وَتَجَلِّي الرَّحْمَةِ: يَقُولُ تَعَالَى: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» (١)؛ وَهُوَ ثَنَاءٌ إِلَهِيٌّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَعْلَوْا عَلَى ثَوَرَانِ "الطَّبِيعَةِ النَّاسُوتِيَّةِ"؛ فَكَسَرُوا (جُنْدَ الْغَضَبِ) بِقُوَّةِ الْإِرَادَةِ الْمَلَكُوتِيَّةِ، لِيَتَحَوَّلَ الِاحْتِقَانُ النَّفْسِيُّ إِلَى صَفْحٍ جَمِيلٍ يَعْكِسُ سَعَةَ الصَّدْرِ الْإِيمَانِيِّ.
ظُلْمَةُ الْعَصَبِيَّةِ وَحِجَابُ الْجَاهِلِيَّةِ: يَقُولُ تَعَالَى: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» (٢)؛ وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى (الِانْفِعَالِ الشَّيْطَانِيِّ) الَّذِي يَعْزِلُ الْكَائِنَ عَنْ نُورِ الْحَقِّ؛ حَيْثُ تَكُونُ "الْحَمِيَّةُ" حِجَاباً كَثِيفاً يَحْرِمُ النَّفْسَ مِنْ مَقَامِ الطُّمَأْنِينَةِ وَالتَّسْلِيمِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.
ثَانِيًا: مِنَ الْإِشْرَاقِ الرِّوَائِيِّ (حَقِيقَةُ الِاقْتِدَارِ وَمَبْدَأُ الِانْضِبَاطِ)
الْبُطُولَةُ الْجَوْهَرِيَّةُ وَالْإِحْكَامُ الْعَقْلِيُّ: رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» (٣)؛ وَهُوَ تَصْحِيحٌ لِمَفْهُومِ (الْقُوَّةِ)؛ حَيْثُ تَنْتَقِلُ مِنَ الْفِعْلِ الْعَضَلِيِّ إِلَى الْإِحْكَامِ الْعَقْلِيِّ؛ فَالِاقْتِدَارُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الِانْتِصَارُ عَلَى "الذَّاتِ" قَبْلَ الِانْتِصَارِ عَلَى الْخَصْمِ.
أَصْلُ الشُّرُورِ وَانْسِدَادُ الْبَصِيرَةِ: رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «الْغَضَبُ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ» (٤)؛ وَهُوَ بَيَانٌ لِخُطُورَةِ (الِانْفِلَاتِ الِانْفِعَالِيِّ) الَّذِي وَصَفَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بِأَنَّهُ جُنْدٌ لِإِبْلِيسَ؛ حَيْثُ يُفْتَحُ بِهِ بَابُ التَّهَوُّرِ، وَيَنْغَلِقُ مَعَهُ بَابُ الْحِكْمَةِ، فَيُحْرَمُ السَّالِكُ مِنْ نُورِ الْبَصِيرَةِ اللَّازِمِ لِحِفْظِ الِانْقِيَادِ.ج

الْمَطْلَبُ السَّادِسُ: الْفَوَائِدُ الْمُتَرَتِّبَةُ (ثَمَرَاتُ الْحِلْمِ وَالسَّكِينَةِ)

صِيَانَةُ الْعَقْلِ: الْحِلْمُ يَحْفَظُ لِلْإِنْسَانِ قُدْرَتَهُ عَلَى التَّفْكِيرِ السَّلِيمِ.
الْقُرْبُ مِنَ الرَّحْمَنِ: لِأَنَّ تَرْكَ الْغَضَبِ هُوَ كَسْرٌ لِأَقْوَى أَدَوَاتِ الشَّيْطَانِ.
الِاسْتِقْرَارُ الِاجْتِمَاعِيُّ: كَسْرُ سَوْرَةِ الْغَضَبِ يُحَقِّقُ "السَّلَامَ" الَّذِي خَتَمَ بِهِ الْإِمَامُ.

خَاتِمَةُ الْبَحْثِ: الِانْتِصَارُ الْأَكْبَرُ

يَلْخَصُ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الْغَضَبَ هُوَ الثَّغْرَةُ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ لِهَدْمِ بِنَاءِ الْعُبُودِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ. إِنَّ التَّحْذِيرَ الْعَلَوِيَّ يَدْعُو السَّالِكَ لِيَكُونَ يَقِظاً، فَمَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ، فَقَدْ مَلَكَ زِمَامَ نَفْسِهِ، وَاسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ "السَّلَامِ" فِي الدَّارَيْنِ.

الْمَصَادِرُ:
(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَان، الْآيَةُ ١٣٤.
(٢) سُورَةُ الْفَتْح، الْآيَةُ ٢٦.
(٣) بِحَارُ الْأَنْوَارِ، ج ٧٢، ص ٢٧٧.
(٤) الْكُلَيْنِيُّ، الْكَافِي، ج ٢، ص ٣٠٣.

قَائِمَةُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ الشَّامِلَةِ

١. الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: كَلَامُ اللهِ الْمُنَزَّلُ.
٢. الْمَرَاقِبَاتُ (أَعْمَالُ السَّنَةِ): الْمُؤَلِّفُ الْعَارِفُ الْمِيرْزَا جَوَادُ الْمَلِكِيُّ التَّبْرِيزِيُّ، دَارُ النَّشْرِ: دَارُ الِاعْتِصَامِ - بَيْرُوتُ، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.
٣. الْمَلَكَةُ التَّفْسِيرِيَّةُ (مَنَاهِجُ التَّأْوِيلِ وَآلِيَّاتُ الِاسْتِنْبَاطِ): الْمُؤَلِّفُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بَرِيزِي، دَارُ النَّشْرِ: مَنْشُورَاتُ الْعَتَبَةِ الْعَلَوِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ - النَّجَفُ الْأَشْرَفُ، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م.
٤. الْكَافِي (الْأُصُولُ وَالْفُرُوعُ): الْمُؤَلِّفُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْكُلَيْنِيُّ، دَارُ النَّشْرِ: دَارُ الْكُتُبِ الْإِسْلَامِيَّةِ - طِهْرَانُ، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٣٦٥ هـ.ش.
٥. نَهْجُ الْبَلَاغَةِ: جَمْعُ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ (مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ)، دَارُ النَّشْرِ: دَارُ الْهِجْرَةِ - قُم، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤١٤ هـ.
٦. بِحَارُ الْأَنْوَارِ الْجَامِعَةُ لِدُرَرِ أَخْبَارِ الْأَئِمَّةِ الْأَطْهَارِ: الْمُؤَلِّفُ الْعَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بَاقِرُ الْمَجْلِسِيُّ، دَارُ النَّشْرِ: دَارُ إِحْيَاءِ التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ - بَيْرُوتُ، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤٠٣ هـ.
٧. وَسَائِلُ الشِّيعَةِ إِلَى تَحْصِيلِ مَسَائِلِ الشَّرِيعَةِ: الْمُؤَلِّفُ الشَّيْخُ الْحُرُّ الْعَامِلِيُّ، دَارُ النَّشْرِ: مُؤَسَّسَةُ آلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لِإِحْيَاءِ التُّرَاثِ - قُم، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤١٤ هـ.
٨. مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهُ: الْمُؤَلِّفُ الشَّيْخُ الصَّدُوقُ (مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ بَابَوَيْهِ الْقُمِّيُّ)، دَارُ النَّشْرِ: مُؤَسَّسَةُ النَّشْرِ الْإِسْلَامِيُّ - قُم، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤١٣ هـ.
٩. عُيُونُ الْحِكَمِ وَالْمَوَاعِظِ: الْمُؤَلِّفُ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ اللَّيْثِيُّ الْوَاسِطِيُّ، دَارُ النَّشْرِ: دَارُ الْحَدِيثِ - قُم، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٣٧٦ هـ.ش.
١٠. الْمِيزَانُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ: الْمُؤَلِّفُ الْعَلَّامَةُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ حُسَيْنِ الطَّبَاطَبَائِيُّ، دَارُ النَّشْرِ: مَنْشُورَاتُ جَمَاعَةِ الْمُدَرِّسِينَ - قُم، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤١٧ هـ.
١١. مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ (التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ): الْمُؤَلِّفُ الْإِمَامُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ، دَارُ النَّشْرِ: دَارُ إِحْيَاءِ التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ - بَيْرُوتُ، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤٢٠ هـ.
١٢. تَفْسِيرُ مَجْمَعِ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ: الْمُؤَلِّفُ الشَّيْخُ الْفَضْلُ بْنُ الْحَسَنِ الطَّبْرِسِيُّ، دَارُ النَّشْرِ: مُؤَسَّسَةُ الْأَعْلَمِيِّ لِلْمَطْبُوعَاتِ - بَيْرُوتُ، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤١٥ هـ.
١٣. الْحِكْمَةُ الْمُتَعَالِيَةُ فِي الْأَسْفَارِ الْعَقْلِيَّةِ الْأَرْبَعَةِ: الْمُؤَلِّفُ صَدْرُ الْمُتَأَلِّهِينَ الشِّيرَازِيُّ (مُلَّا صَدْرَا)، دَارُ النَّشْرِ: دَارُ إِحْيَاءِ التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ - بَيْرُوتُ، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤١٠ هـ.
١٤. تَفْسِيرُ الصَّافِي: الْمُؤَلِّفُ الْمَوْلَى الْمُحَسِّنُ الْفَيْضُ الْكَاشَانِيُّ، دَارُ النَّشْرِ: مَكْتَبَةُ الصَّدْرِ - طِهْرَانُ، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٤١٦ هـ.
١٥. مِشْكَاةُ الْأَنْوَارِ فِي غُرَرِ الْأَخْبَارِ: الْمُؤَلِّفُ أَبُو الْفَضْلِ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ الطَّبْرِسِيُّ، دَارُ النَّشْرِ: الْمَكْتَبَةُ الْحَيْدَرِيَّةُ - النَّجَفُ، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٣٨٥ هـ.
١٦. تَنْبِيهُ الْخَوَاطِرِ وَنُزْهَةُ النَّوَاظِرِ (مَجْمُوعَةُ وَرَّام): الْمُؤَلِّفُ وَرَّامُ بْنُ أَبِي فِرَاسٍ الْحِلِّيُّ، دَارُ النَّشْرِ: دَارُ الصَّعْبِ / دَارُ التَّعَارُفِ - بَيْرُوتُ، سَنَةُ الطَّبْعِ ١٣٨٩ هـ.

نِدَاءُ الْخِتَامِ وَفَلْسَفَةُ الِاتِّحَادِ بِالْحَقِّ

إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي طُفْنَا فِي رِحَابِهَا لَيْسَتْ سُطُوراً تُقْرَأُ، بَلْ هِيَ مَوَازِينُ تُقْضَى بِهَا الْحَاجَاتُ الرُّوحِيَّةُ؛ فَوَصِيَّةُ الْأَمِيرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لِلْحَارِثِ الْهَمْدَانِيِّ تَنْطَلِقُ مِنْ رُؤْيَةٍ كَوْنِيَّةٍ تَجْعَلُ مِنَ الْإِنْسَانِ قِبْلَةً لِلتَّجَلِّيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ. وَإِنَّمَا مَفَادُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ لِكُلِّ نَفْسٍ تَتُوقُ لِلطَّهَارَةِ وَتَرْجُو مَقَامَ الْقُرْبِ، يَتَلَخَّصُ فِي هَذَا الْمِعْرَاجِ الثُّلَاثِيِّ:

«طَهِّرْ مِرْآةَ قَلْبِكَ بِالِاعْتِبَارِ»

إِنَّ أَوَّلَ مَنَازِلِ السَّالِكِ هِيَ التَّصْفِيَةُ؛ وَلَا يَصْفُو الْقَلْبُ إِلَّا بِكَسْرِ أَصْنَامِ التَّعَلُّقِ بِدَارِ الْغُرُورِ. فَالِاعْتِبَارُ بِمَا مَضَى لَيْسَ اسْتِغْرَاقاً فِي التَّارِيخِ، بَلْ هُوَ "جَلَاءٌ لِلْبَصِيرَةِ" لِتَرَى فَاعِلِيَّةَ الْحَقِّ فِي تَصَرُّفِ الزَّمَانِ. فَإِذَا طَهُرَتِ الْمِرْآةُ مِنْ غُبَارِ الْغَفْلَةِ عَنِ الْمَوْتِ وَالرَّحِيلِ، انْعَكَسَتْ فِيهَا أَنْوَارُ الْمَلَكُوتِ، وَأَبْصَرَ السَّالِكُ حَقِيقَةَ الْفَنَاءِ فَهَرَبَ إِلَى الْبَقَاءِ.

«وَزَيِّنْ لِسَانَكَ بِتَعْظِيمِ الْقَهَّارِ»

ثُمَّ تَأْتِي التَّحْلِيَةُ؛ بِأَنْ يَكُونَ النُّطْقُ تَرْجُمَاناً لِهَيْبَةِ الْجَلَالِ. فَتَعْظِيمُ اسْمِ اللَّهِ «إِلَّا عَلَى حَقٍّ» هُوَ زِينَةُ الْعَارِفِينَ الَّتِي تَمْنَعُهُمْ مِنْ خَوْضِ الْبَاطِلِ وَلَغْوِ الْكَلَامِ. إِنَّ اللَّفْظَ حِينَ يَمْتَزِجُ بِالْيَقِينِ، يَتَحَوَّلُ مِنْ صَوْتٍ مَسْمُوعٍ إِلَى نُورٍ مَشْهُودٍ، فَيَصِيرُ لِسَانُ السَّالِكِ حِصْناً لِلْحَقِّ، فَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا يُوجِبُ الرِّضَا، وَلَا يَصْمُتُ إِلَّا عَنْ حِكْمَةٍ وَتُقًى.

«وَاجْعَلْ سَرِيرَتَكَ وَعَلَانِيَتَكَ نُوراً عَلَى نُورٍ»

وَهِيَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى الَّتِي تَمْحُو كُلَّ ازْدِوَاجٍ وُجُودِيٍّ؛ بِأَنْ يَتَّحِدَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ فِي مِيزَانِ الصِّدْقِ. فَالْحَذَرُ مِنْ عَمَلِ السِّرِّ الَّذِي يُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ هُوَ الَّذِي يَهَبُ النَّفْسَ صَفَاءَهَا، فَلَا يَعُودُ هُنَاكَ "سِتْرٌ" يَخْشَى السَّالِكُ هَتْكَهُ، بَلْ يَصِيرُ كِيَانُهُ كُلُّهُ شَفَّافاً يَنْفُذُ مِنْهُ ضِيَاءُ الْحَقِيقَةِ. فَمَنْ كَانَ سِرُّهُ نُوراً، أَشْرَقَتْ عَلَانِيَتُهُ بِالْجَمَالِ، فَلَا يَعْرِفُ طَعْمَ الِانْكِسَارِ أَمَامَ الْخَلْقِ، وَلَا ذُلَّ الِاعْتِذَارِ عَنِ الْفِعْلِ.

بِهَذَا الِاكْتِمَالِ فَقَطْ، يَسْتَكْمِلُ الْإِنْسَانُ "قُوَّتَهُ النُّزُوعِيَّةَ"؛ فَيَتَحَوَّلُ مِنْ كَائِنٍ مَادِّيٍّ مُكَبَّلٍ بِالشَّهَوَاتِ إِلَى رُوحٍ مَلَكُوتِيَّةٍ تَنْزِعُ نَحْوَ كَمَالِهَا الْمُطْلَقِ. حِينَئِذٍ، يَصِيرُ كِيَانُهُ كُلُّهُ عَمَلاً يَرْضَاهُ اللَّهُ لِأَنَّهُ صَدَرَ عَنْ إِخْلَاصٍ، وَيَأْنَسُ بِهِ الْخَلْقُ لِأَنَّهُ صَفَا عَنِ الْأَذَى، وَيَفِيضُ عَلَيْهِ بِالْأَمْنِ يَوْمَ الرَّحِيلِ لِأَنَّهُ قَدِمَ عَلَى مَا قَدَّمَ بِيَقِينِ الْمُشَاهَدَةِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الِاسْتِقَامَةِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ صَاحِبِ هَذِهِ الْمَوَازِينِ الْقُدْسِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ لِلْأُمَّةِ، وَرَسَمَ لَنَا مَعَالِمَ النُّورِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

تَمَّ هَذَا الْبَحْثُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ